خريف مانهاتن

رواية

تأليف

عمر كمال الدين

طبعة ٢٠١٩

كمال الدين، عمر

خريف مانهاتن: رواية / عمر كمال الدين؛ - الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

٢٥٢ ص ،٢٠ سم

تدمك: ١ ٦٨٧ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

خريف مانهاتن

رواية

تأليف

عمر كمال الدين

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/١٤٦٥٩

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٦٨٧-١

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : خريف مانهاتن

المؤلف : عمر كمال الدين

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إهداء لم يكتب....

توفى الكاتب عمر كمال الدين قبل أن يكتب إهداء إلى قراءه لهذا العمل ولذا...

نيابه عنه

نهدى عمله الأخير إلى روحه الطاهرة وإلى قراءه الأعزاء

خريف مانهاتن

العمل الأخير

«ستكون بخير.. ستكون بخير."

أتمتم بصوت خفيض محادثة نفسي وقدمي تضغط أكثر على دواسة الوقود بشكل عصبي.

تذهب عيناي لا إراديًا إلى المرآة أمامي فألمح انعكاس ذلك البيت المكون من طابق واحد يختفي شيئًا فشيئًا خلفنا حيث حدث ما حدث منذ قليل.

أثبت عينيّ على الطريق اللانهائية أمامي، تترامى الصحراء على جانبيها دون وجود أي أثر للحياة. تتشوش رؤيتي إثر الدموع التي تنهال منهما، أمسحهما بظهر يديّ الاثنتين تباعًا قبل أن ألحظ الدماء التي تلوثهما و تلوث مقود السيارة. ليست دمائي، بل دماؤه هو.

أنظر إلى المقعد يميني حيث يجلس متهالكًا، مضرجًا في دماءه التي تنز من ذلك الجرح في جانبه الأيسر. ينظر لي مبتسمًا في ذبول فأقبض على يده اليسرى متمتمة من جديد: «ستكون بخير.. ستكون بخير..".

من أسفل كنزته القطنية البيضاء المشبعة بالدماء يمد يده إلى صدره في بطء، يخرج قلادة فضية أعرفها تمام المعرفة، ينظر إليها في أسى، يعتصرها بما تبقى لديه من قوة ثم يغمض عينيه في استسلام.

تتطاير خصلات شعره الفضية، وعلى الدماء اللزجة المنسابة على صدغه الأيسر تنعكس أشعة الشمس التي خرجت من مكمنها منذ قليل، بدأت بشرته وشفتاه في الاستحالة إلى اللون الأزرق الباهت بشكل ينبيء أنه على وشك أن يكون جثة هامدة.

أصرخ: «لاااااااا!"

أحاول هزه بيدي صارخة: «ابق معي، افتح عينيك، انظر إليّ، لا تتركني، ليس بعد كل ما مررنا به».

تنهال الدموع من عينيّ بشكل جنوني، ألكم صدره بقبضتي اليمنى صارخة من جديد فيفتح عينيه ببطء ثم يغلقهما من جديد.

أعرف أننا اقتربنا كثيرًا من الوجهة المنشودة، أضغط أكثر على دواسة الوقود حتى يشير عداد السرعة إلى رقم مخيف، لا آبه لذلك فهو كل ما لديّ و اذا خسرته فلن يتبق لديّ أي شيء و لن يعني لي ذلك العالم السخيف أي شيء.

في الأفق تبدأ تضاريس المدينة في الظهور واتخاذ أشكال واضحة، لم يتبق الكثير.

بعد قليل أكون قد وصلت إلى المستشفى المترامية على أطراف تلك المدينة فأقوم بإيقاف السيارة بحركة فجائية يكاد هو على إثرها أن يصطدم بتابلوه السيارة قبل أن أسند صدره بيدي.

أترجل من السيارة بسرعة متجاهلة ذلك العرج المصابة به قدمي اليمنى، أتجه نحو باب المستشفى الزجاجي الكبير، أفتحه ملوثه إياه بالدماء، تقع عيناي على تلك السيدة التي تجلس إلى مكتب الاستقبال في ملل فأصرخ فيها: «فلينجدني أحدكم، إنه يحتضر!".

أقولها ثم أعود أدراجي ناحيته، أفتح الباب وأحاول إخراجه من السيارة، أضع ذراعه اليمنى فوق كتفي وأبدأ في جذبه فأسقط أرضًا، أتألم إثر فشلي وذلك الجرح في قدمي، تنهال الدموع مجددًا من عينيّ و أنا أصرخ «فلينجدني أحدكم!»، يتردد صدى صوتي في المكان فيشعرني بالوحشة.

أنهض من جديد محاولة حمله مرة أخرى قبل أن أسمع صرير عجلات آتية من خلفي ثم أجد أذرع بشرية تلتقف جسده مني في قوة، ممرضان يرتديان الملابس البيضاء المميزة يحملانه، يضعانه برفق على أحد الأسرة المدولبة ثم ينطلقان به داخل المستشفى.

أنطلق خلفهم وجسدي على وشك أن يتداعى، تقابلنا إحدى الممرضات في الطريق، تسير بجانبنا ممسكة بدفتر ورقي و قلم، ثم تسألني في حزم: «سبب النزيف؟»

أجيبها دون أن أحرك عينيّ عنه «طعنة سكين».

تدون ما قلته ثم تشير إلى قدمي التي تعرج قائلة «ماذا بشأنك انتِ، ساقك تحتاج لـ ..."

أقاطعها «ليس الآن، لأطمئن عليه أولاً».

تومىء متفهمة ثم تشير إلى الممرضين كي يتجها إلى أحد الغرف أمامنا مدون على بابها «غرفة الطوارئ». يدخل الممرضان به ثم تمنعني هي من الدخول خلفهما فأصرخ متمسكة بالطرف المعدني لسريره قبل أن يقتلعاه من يدي و يتم دفعي للخارج، تحاول الممرضة الإمساك بي قائلة في حزم «أرجوكِ يا آنسة، الحالة حرجة للغاية»

يرتعش جسدي و أنا أنظر إليه عبر النافذة الزجاجية للغرفة في يأس، تتسارع أنفاسي قبل أن أتراجع ملتصقة بالحائط لأترك جسدي يسقط جالسًا على الأرض فأنهار باكية وأنطلق في نحيب بشع.

تقترب مني ممرضة أخرى، تربت على كتفي قائلة في هدوء «لا داعي للقلق، سيكون بخير».

وقبل أن تمر دقيقة واحدة يسري الاضطراب فجأة حولي وأنا أرى عددًا من الأطباء يهرولون إلى الغرفة في توتر، يخرج

بعدها أحد الممرضين ناظرًا لي في رعب ثم ينطلق مبتعدًا ويدخل آخر بدلاً منه.

أنهض متحاملة على نفسي، أقترب من باب الغرفة، بالداخل أراهم يتحلقون حوله في قلق، عدة أنابيب موصولة بصدره وفمه، ومحاقن مثبتة إلى ذراعيه.

أحد الأطباء يمسك بمقبضي جهاز الإنعاش الكهربائي طالبًا من الجميع الابتعاد عنه ثم يشير إلى إحدى الممرضات بتشغيل الجهاز، يلصقه بصدره ثم يصعقه فيهتز جسده للحظات ثم يرتخي تمامًا، ينظر إلى الشاشة الموصولة بقلبه دون أن يتعرج ذلك الخط الذي يترجم نبضاته، يكرر الطبيب فعلته مرة تلو المرة دون أن يتعرج الخط، فقط اهتزازات جسده البشعة ثم لا شيء.

يهز الطبيب رأسه في أسى مشيرًا إلى الممرضة باطفاء الجهاز، يضع المقبضين جانبًا، يخلع القناع عن وجهه، ينظر إلى ساعته ثم يتمتم شيئًا ما تدونه الممرضة إياها في دفترها.

ومن دون أن أسمعه أعرف تمامًا ما نطقته شفتاه.

إعلان وفاة الحالة في السابعة و النصف صباحًا.

وفاة والدي، عايش نزار الحداد.

●●●

الفصل الأول

قبل ثلاثة أشهر..

تنزلق الكرة في سلة فريقنا لتعلن إضافة ثلاث نقاط أخرى للفريق المنافس لتصبح معها النتيجة ٧٧ – ٧٥ لصالحهم. هذه هي ثالث ثلاثية يحرزونها في أقل من دقيقة بعد أن قاموا بخطف الكرة من فريقنا و صناعة ثلاث هجمات مرتدة ليصبح فارق النقاط الآن في صالحهم بعد أن كنا متقدمين عليهم بفارق سبع نقاط.

لم يتبق إلا عشرين ثانية ويجب علينا إحراز هدف التعادل قبل انتهاء وقت المباراة الرسمي.

تنطلق صفارة الحكم واضعًا يده اليمنى بشكل أفقي لتتقاطع مع يده اليسرى ليعلن توقف اللعب من أجل وقت مستقطع مدته ثلاثون ثانية.

نتجه أنا وبقية الفريق إلى المدرب هانسن الذي قام بطلب ذلك الوقت المستقطع، يقف خمستنا متحلقين حوله على شكل نصف دائرة، يبدأ في إلقاء تعليماته لنا بطريقة سريعة وحماسية موزعًا نظراته علينا بشكل متساو.

منهكة أنا أنحنى قليلاً إلى الأمام ساندة يديّ على ركبتيّ وأنا أحاول أن أعبىء أكبر قدر من الهواء في صدري. قطرة عرق تغادر جبهتي لتسقط أرضًا فتتناثر على شكل قطرات متناهية الصغر تجعلني أشرد قليلاً لأسافر بعقلي إلى الماضي، إلى أربعة عشرة عام قبل الآن، إلى غرفتي الصغيرة بمنزلنا القديم، الليل قد حل منذ قليل و ها هي تمطر للمرة الأولى لتعلن عن قدوم الشتاء، متدثرة بغطائي القطني أستعد للنوم وبجانبي تجلس أمي على الفراش من أجل موعدي اليومي لحكاية ما قبل النوم، الحكاية التي طالما أحببتها، الجميلة والوحش.

أتذكر كل شيء وكأنه كان بالأمس، ضوء المصباح الخافت على الكومود بجانبي، صوت أمي الرقيق الممزوج بصوت قطرات المطر التي ترتطم بزجاج نافذة غرفتي فننظر كلانا إليها ونضحك ضحكات قصيرة ثم تستكمل أمي الحكاية من حيث توقفت.

يغلبني النعاس فتتشوش رؤيتي وتثقل أجفاني لأشعر بعدها بشفتيها تقبلان وجنتي بلطف شديد، ينطفىء ضوء المصباح ثم ينغلق باب الغرفة لأذهب أنا في سبات عميق.

«ثم تتسلمين أنتِ الكرة، تحاولين المراوغة ومن ثم تسددين الكرة إلى السلة من أجل تسديد نقطتين وتحقيق التعادل،

وإياكِ، إياكِ أن تحاولي تسديد رمية ثلاثية من خارج المنطقة! لن أسمح لك أن تضيعي مجهود الفريق بأكمله إرضاءً لغرورك! هل فهمتِ؟، تاليا!"

أخرج من شرودي فور سماع اسمي، بعينين واسعتين أنظر إلى المدرب في عدم استيعاب فينظر إليّ قاطبًا جبينه في غضب، يقترب مني أكثر مشيرًا بكلتا يديه في وجهي بلهجة آمرة و هو يهدر «لا رميات ثلاثية يا تاليا.. اتفقنا؟»

أومىء له برأسي موافقة على أوامره فيصفق لنا مرتين في حماس ثم يشير إلينا بالعودة إلى الملعب وهو يربت على أكتافنا مرددًا بعض العبارات الحماسية من أجل تشجيعنا.

تنطلق صفارة استكمال المباراة، الكرة بحوزتنا، تقوم كورتني بترييت الكرة أرضًا ثم تمررها إلى أوليفيا التي تعيدها مجددًا إلى كورتني التي تمررها إلى سكاي التي تمررها إلى كيت التي تربت الكرة عدة مرات أرضًا قبل أن تعيدها إلى أوليفيا. بدأنا في احتلال نصف ملعب الفريق الآخر وجميع عضوات فريقي يتجنبن تمرير الكرة إليّ كي لا أسدد تمريرة ثلاثية من خارج منطقة الجزاء، يلتزمن بشدة بتعليمات المدرب هانسن، تبًا لهن وله!

لم يتبق إلا عشر ثوان فقط على نهاية المباراة، أحاول الدخول إلى منطقة الجزاء وسط ممانعة شديدة من دفاع الفريق المنافس، تحت السلة أنتظر وأنا أحاول مقاومة دفعة هنا أو ضربة هناك، وفجأة تمرر إليّ كورتني الكرة وهي تأمرني بالتسجيل قبل أن ينتهي وقت المباراة.

ألتقط الكرة في ثبات، أنظر إلى ساعة الملعب، خمس ثوان بأكملها قد تبقت، وقت طويل جدًا لتسجيل كرة واحدة، إذا سجلت الآن فسوف يحاولون بعدها تسجيل ثلاثية من أجل إنهاء المباراة لصالحهم وذلك ليس بالعسير عليهم. أناور إحدى لاعبات الفريق المنافس وأقفز إلى الأعلى باتجاه السلة دون أن أسجل وسط صيحات الجميع الغير مستوعبة، وما أن تطأ قدماي الأرض حتى أركض بشكل عكسي خارج المنطقة، أنظر إلى ساعة الملعب التي تعلن تبقي ثانية واحدة على انتهاء المباراة. أقفز في الهواء خارج المنطقة وأنا أستدير بشكل عكسي لمواجهة السلة ثم ألقي بالكرة نحوها.

تتجه الكرة نحو سلة الفريق المنافس وتتجه معها أنظار وقلوب الجميع، عضوات كلا الفريقين تجمدن في أماكنهن كالأصنام، جميع من بالملعب من جماهير، احتياطي الفريقين غادروا مقاعدهم واقفين في ذهول. أسقط إلى الخلف وأنا أشاهد الكرة تلامس

الحافة المعدنية المستديرة لتدور بعدها وهي تتهادى فوق تلك الحافة ببطء شديد وكأنها تتعمد إثارة وإغاظة جميع من بالملعب خاصة أنا، تتوقف للحظات ثم تنزلق في السلة في نفس اللحظة التي أسقط أنا فيها ليرتطم ظهري بأرضية الملعب قبل أن تصل إلى مسامعي صفارة انتهاء المباراة متبوعة بصيحات الجماهير المهللة لفوزنا بالمباراة بنتيجة ٧٧-٧٨.

●●●

الفصل الثاني

حينما أصل إلى المنزل يبدو ساكنًا كالعادة، اتجه إلى المطبخ المصمم على النظام الأمريكي، (مضحكة جدًا تلك الجملة فنحن نعيش بالفعل في أمريكا!). ألقي بحقيبتي أرضًا و أفتح الثلاجة، أخرج منها قنينة بلاستيكية أصب منها القليل من عصير البرتقال المثلج في أحد الأكواب الزجاجية وأشرع في تناول ما بها حينما يأتيني صوته هادئًا من خلفي:

- كيف كان يومك؟

أستدير تجاه الصوت لأجده جالسًا على مقعده المفضل بالصالة، مرتديًا عويناته الطبية يمسك بكتاب ما بيسراه ويدون شيئًا في أحد الأوراق بيمناه. شيء في غاية القسوة أن تحتاج أن تدون كل شيء تقرأه كي لا تنساه بعد ذلك. أرتشف القليل من العصير ثم أجيبه:

- كعادة كل الأيام. لست مضطرًا أن تدون أي شيء، فأنا هنا.

يبتسم بركن شفتيه الأيمن، يضع القلم و الورقة جانبًا ومن دون أن ينظر لي يسأل بطريقة آلية:

- والمباراة؟

أحرك الكوب بطريقة دائرية تشي بالملل مجيبة:

- فزنا بها.

- ممتاز، لابد أن المدرب سعيد بكِ، مبروك.

أضحك لا ارادياً وأنا أكاد أبصق ما بفمي من عصير قائلة:

- سعيد للغاية، لدرجة جعلته يوقفني عن اللعب لمباريتين كاملتين.

وهنا يتوقف عما يفعله، يخلع عويناته و يضعهما على مسند المقعد وينظر لي في قلق قائلاً:

- لماذا؟

أنفث في ضيق ناظرة للسقف، ثم أجيبه محاولة السيطرة على أعصابي:

- كنا في العشر ثوان الأخيرة، طلب مني ألا أحاول تسجيل كرة ثلاثية وفعلت وربحنا المباراة!

- تقصدين خاطرتِ بالفريق يا حلم.

- لكننا ربحنا!

- كان من الممكن أن تخسروا بسبب ما فعلتيه.

بطريقة عنيفة أضع الكوب في الحوض ثم أتجه إليه قائلة:

- أتقف في صفه ضدي؟

يضيق عينيه ناظرًا إليّ في حدة وقبل أن أكمل يقاطعني:

- أنا أقف بصف الصواب، تصرفتِ بمنتهى التهور وكان من الممكن أن تنسفي مجهود فريقك المبذول طوال السنة.

- اسمع..whatever!.. وكأن المباراة هي ما ينقصني، كل شيء في عالمي خرب!

ألقي في وجهه بما قلته، ألتقط حقيبتي وأهم بالدخول إلى غرفتي حينما يوقفني هاتفًا:

- توقفي! ماذا تعنين؟

أسقط حقيبتي أرضًا وبلهجة ساخرة أرد واضعة يدي على فمي:

- اه نسيت أنني أحيا بالجنة.. آسفة!

- فلتحمدي الله على حياتك!

- حياة؟ أتسمي ذلك بحياة؟! نعيش بأسماء ليست لنا، في وطن ليس بوطننا، وحياة لا تخصنا، مع أناس لا يشبهوننا،

ونتحدث بلغة لا تنتمي لنا! هل تستطيع إخباري إلى متى سوف نظل مختبئين هنا بين الظلال؟ المشكلة أصلاً انك لا تريد إخباري مما نحن مختبئون ولماذا!

يبدأ صوتي في التهدج مصحوبًا بدموعي التي تسيل لا إراديًا من عينيّ، يقترب مني بجسده الضخم، يمسك برأسي برقة، يمسد على شعري ثم يمسح دموعي بإبهاميه قائلاً:

- في الوقت المناسب سوف أخبرك بكل شيء، فقط ليس الآن.

- وماذا بشأن أمي؟

يحتضنني قائلاً:

- انسيها، انسيها يا حلم، كما نسيتها أنا.

●●●

هذه هي حياتي كما ترون، تسع سنوات وأنا أحيا في تلك المآساة، مجبرة أن أتحدث مع الجميع بلغة غير لغتي، أن أعيش على أرض لا تشبهني، وطن ليس بوطني. إذا كنتم تتساءلون عن الخلطة السرية لحياتي فها هي مكوناتها، هوية مزيفة وأحلام مؤجلة ومخاوف مجهولة لا أعلم عنها شيئًا!

أن تهرب من شيء ما فذلك بالشيء الطبيعي والمقبول، ولكن أن تهرب من شيء لا تدري كنهه لسنوات وسنوات فذلك ضرب من الجنون!

منذ أن قدمنا إلى هنا، مانهاتن – أمريكا، ونحن نعيش بتلك الهويات المزيفة والأسماء المستعارة، التي قرر أبي أن نختبئ في ظلها، واحتفظ لنفسه بالسر وراء ذلك معللاً أن ما يخفيه عني يفوق قدرتي على الاحتمال، وسوف يأتي اليوم الذي تتكشف لي فيه كل تلك الحقائق حينما أكون مستعدة لاستقبالها.

منذ أن جئنا إلى هنا وأنا مطالبة بأن أنسى كل ما تربيت عليه، و كل ما نشأت في كنفه، وطني، بيتي، أهلي، أصدقائي، جيرتي، مدرستي، كل شيء.

منذ أن جئنا إلى هنا وأنا أرتدي شخصًا آخر غيري، أحاول التأقلم على حياة ليست لي، في الصباح وطيلة اليوم أنا تاليا آدم أمريكية الجنسية، وللحظات قليلة فقط وقبل أن أخلد إلى النوم يمكنني أن أخلع كل ذلك الزيف عني واحظى بشخصيتي وهويتي الحقيقتيان، حلم عايش.

مصرية الجنسية من أب مصري وأم مصرية. عايش وحياة.

كاتب ناجح وموهوب، ذو شهرة واسعة تخطت العالم العربي بأكمله، ما الذي يجعل شخصًا مثله يفر تاركًا كل ذلك خلفه، قاطعًا كل صلة تمت له بحياته السابقة، ما الذي يجعله يتخلى عن مجده وتاريخه وعالمه الخاص من أجل أن يأتي إلى هنا ويعمل بتلك الوظيفة البسيطة، حارس أمن!

نعم، حارس أمن بإحدى البنايات القريبة من هنا، خاصة مع ذاكرته الضعيفة - آسفة - اللا موجودة من الأساس، مما يضطره إلى تسجيل كل شيء يحدث حوله بالورقة والقلم وتصوير الداخلين والخارجين من البناية كي لا ينسى أحدهم.

من يفعل ذلك إلا رجل قد ضرب موعدًا مع ملك الموت ثم تخلف عنه.

وهل للأمر علاقة بأمي؟ هل لها يد في كل ذلك؟ وفيما يحدث لنا؟

ألذلك يحاول دائمًا محوها ومحو تفاصيلها كافة من حياتنا؟ يتجنب الحديث عنها أو ذكر حتى اسمها وكأن استحضارها سيستجلب لنا الشؤم و اللعنات!

أعود بذاكرتي بضعة سنوات إلى الوراء، أحاول فتح عبوات الماضي التي كنت قد أغلقتها ودفنتها بعيدًا تحت الأرض.

تتغيب أمك عن تسجيل حضورها اليومي بالمنزل، عن إيقاظك صباحًا من أجل الذهاب إلى المدرسة، عن حكايات ما قبل النوم، عن تلوين عالمك كما اعتادت أن تفعل.

لا تستوعب الأمر حتى تراه في نظرات الشفقة التي تحاصرك في عيون من حولك، حتى تتلمسها في تربيتاتهم على كتفيك بين الحين والآخر. لتكتشف في النهاية ترجمة كل ذلك بخط عريض أسفل شاشة عقلك، رحلت أمك عن ذلك العالم ولن تعد مرة أخرى.

●●●

الفصل الثالث

في صباح اليوم التالي توقظني رنات منبه هاتفي السخيفة المصممة خصيصًا في الجحيم من أجل إزعاجي اليومي. أفتح عينيّ بصعوبة ثم أغلقهما وأنا أصب اللعنات في عقلي على كل شيء يجعلني أغادر فراشي الدافئ كل يوم، المدرسة، حصص الكيمياء، الفيزياء والرياضيات، المدرسون، فريق السلة، الأصدقاء، كورتني، أوليفيا، ناتالي، و ..

أبتسم وأنا أفتح عينًا واحدة مانعة شلال اللعنات من الاستمرار في الانصباب مغرقًا أهدافه متذكرة السبب الوحيد الذي يستحق الاستيقاظ من أجله اليوم وكل يوم، يستحق مغادرة فراشي الدافيء والذهاب إلى ذلك الجحيم والخوض فيه طوعًا وفي رضاً تام.

دش سريع أرتدي بعده شيئًا لائقًا ثم ألملم حاجياتي و كتبي وألقي بها داخل حقيبتي الظهرية وأغادر غرفتي متجهة إلى المطبخ حيث أجد أبي جالسًا إلى الطاولة يدون شيئًا ما بإحدى الأوراق.

- صباح الخير.

يقولها دون ان ينظر لي مشيرًا بيده إلى فطوري الذي قام بتحضيره ووضعه على الطاولة منذ قليل، خبز محمص، بيض، لحم مقدد وعصير برتقال طازج.

- صباح النور.

أقولها قبل أن أتناول قضمة من الخبز المحمص محاولة التلصص على ما يدونه بتلك الورقة، يلحظني فيقوم بطيها قائلاً:

- سوف أتأخر قليلاً اليوم بالعمل، لن أكون هنا قبل السابعة تقريبًا.

- مممم.

- لا تنتظريني على الغداء، تركت لكِ نقودًا بجانب التلفاز، اطلبي طعامًا صينيا أو بيتزا.

- حسنًا.

- وكما تعرفين بالطبع ...

أقاطعه في ملل:

- أعرف، أنا تاليا آدم أمريكية الجنسية، لا كلمات بالعربية ولا محاولات للتقرب من أي شخص عربي أو مصري إذا وجد.

- ممتاز.

أنهي وجبتي، ألتقط حقيبتي وقبل أن أغادر ألثم جبهته وأغادر المنزل تاركة بسمة كبيرة تتسع على وجهه.

●●●

تحية من هذا، صيحة من ذاك، وتصفيق باليد من تلك، قابلني بها كل من رآني في الطريق إلى خزانتي حتى وصلت أخيرًا لأجد صديقاتي الثلاث في استقبالي بالتهليل والصراخ الحماسي. مازال سحر ما فعلته بالمباراة بالأمس يسلب نفوس الجميع هنا. تؤكد كورتني على تلك الفكرة قائلة:

- أصبحتِ أشهر طالبة في المدرسة بأكملها، الجميع يتحدث عما فعلتيه في المباراة بالأمس.

- الجميع، هل أنتِ متأكدة؟

أقولها وعيناي تتجهان إلى الجهة المقابلة من الخزانات حيث يتحلق بعض الصبية حول أحدهم، جسد فارع، وجه وسيم، شعر أشقر تم غزله في حقول الشمس، عينان بلون البحر في أشد نهارات الصيف حرًا، ملامح تنضح بالثقة والجدية. هذا هو ما يجعلني أستيقظ يوميًا، هذا هو من أتخلى عن فراشي الدافئ وأتخطى عتبات الجحيم من أجل أن أراه. «إليوت».

نفس دفعتي المدرسية، واحد من أكثر الطلاب المحبوبين بالمدرسة برغم عدم انتمائه إلى أيًا من الأنشطة الرياضية أو السياسية هنا، هو فقط نال شهرته بسبب مواقفه النبيلة المتكررة ومساعدته لأكثر من طالب وطالبة بالمدرسة في مآزق عدة تعرضوا لها.

تلاحق عينا كورتني عيني حتى تستوعب ما أرمي إليه، تنظر لي مبتسمة في مكر ثم تقترب مني هامسة:

- كان يتحدث مع أصدقائه منذ قليل وتناثرت بضعة كلمات من ذلك الحديث إلى أذني، و أعتقد أنني سمعت اسمك يذكر مرة أو اثنتين.

متلهفة أقاطعها:

- أنتِ تمزحين! وماذا قال؟

يرن الجرس الثاني لبدء حصة الأحياء فيمنع كورتني مما كانت على وشك قوله فتغمز لي بعينها قائلة قبل أن تغادر وتتركني:

- سأخبرك في الاستراحة.

●●●

ينتهي اليوم الدراسي دون أن أرى كورتني في الاستراحة أو في أي وقت آخر بين الحصص، لذا أقرر أن أنتظرها بجوار خزانتها حتى أستطيع رؤيتها قبل أن تغادر. تمضي عدة دقائق دون أن تأتي فأقرر أن أتصل بها على هاتفها النقال، تمر عدة ثوان قبل أن أسمع رنين هاتفها المميز يقترب، في نهاية الرواق أراها تبتسم مشيرة لي بالهاتف في يدها، أنهي الاتصال مشيرة لها أنا الأخرى بهاتفي.

- آسفة، انشغلت في شيء ما ولم أستطع القدوم إليكِ في الاستراحة.

تقولها وهي تلقي ببعض الكتب في خزانتها قبل أن تغلقها مكملة:

- هل هناك من مشكلة في القدوم معكِ إلى البيت؟ أحتاج مساعدتك بفرض التاريخ.

- بالطبع يمكنك المجيء، أبي سيتأخر اليوم قليلاً با لمنا سبة .

أغمز مكملة:

- وسنطلب بيتزا مجانية!

- ممتاز، هيا بنا!

●●●

في سيارة كورتني نصل إلى المنزل بعد ربع ساعة تقريبًا، أقوم بعدها بطلب البيتزا من أحد المطاعم القريبة، أترك لكورتني بعض النقود ثم أنصرف لأستحم. أنتهي من الاستحمام بعد عشرين دقيقة لأعود بعدها لكورتني التي أجدها قد أنهت نصف البيتزا التي وصلت منذ قليل.

نلتهم البيتزا ثم أساعدها في فرض التاريخ ونستذكر لعدة دقائق قبل أن تطوي كورتني الكتاب مضيقة عينيها وهي تنظر لي قائلة:

- إليوت..ها؟

أزم شفتيّ ناظرة لها في صمت فتردف قائلة:

- ألا ينتابك الفضول لمعرفة ما قيل عنكِ؟

أومىء متلهفة لسماع ما سوف تقوله فتضحك في خبث ناظرة إلى السقف دون أن تقول شيئًا فألكمها في كتفها غاضبة، تتأوه ناظرة إليّ في حنق فألكمها مرة أخرى هاتفة:

- تكلمي!

- حسنًا!

تتحسس موضع الألم في كتفها قائلة:

- أخبر زملاءه عن مدى إعجابه بما فعلتيه بالمباراة وعن رغبته في التعرف إليكِ.

في عدم رضا أرد:

- فقط؟ هذا ما قاله فقط؟

- كم أنتِ جشعة!

- أنا فقط كنت أنتظر منه أكثر من ذلك..

- أكثر من ذلك؟ أن يتحدث عن نيته في الزواج منكِ مثلاً؟!

- ليس هذا ما أقصده..

تعتدل كورتني في جلستها قائلة:

- أتدرين ما هي المشكلة الحقيقية؟

- ما هي؟

- أن إليوت خجول بعض الشيء وقد تأخذ الخطوة الأولى منه بعض الوقت، ربما تكونين وقتها قد تخرجتِ، تزوجتِ وأنجبتِ طفلين!

- أعرف.

تعبث كورتني بأظافرها ثم تهتف بي فجأة قائلة:

- أعطني هاتفك!

- لما؟

- أعطنيه.

وقبل أن أحاول استيعاب أي شيء تختطف هي الهاتف من يدي ثم تبدأ في كتابة شيء ما، أحاول اختطاف هاتفي مجددًا فتبوء محاولاتي بالفشل الذريع. تدرك هي أنني سأحاول بشكل أكثر جدية فتنهض تاركة الغرفة وهي لا تزال تكتب شيئًا ما على الهاتف، أنهض راكضة وراءها وأنا أصرخ:

- ما الذي تفعلينه!

- أنتِ من سيقوم بالخطوة الأولى.

- اللعنة!

يتملكني الفزع فأركض بشكل أسرع محاولة اللحاق بها ثم أمد يدي لإمساكها فتقفز هي من فوق أحد المقاعد بالصالة محاولة تفادي يدي، تتعثر ضاحكة ثم تحاول استعادة توازنها لتصطدم بإحدى الطاولات فتتسبب في إسقاط مزهرية سوداء صغيرة لتستحيل في الحال إلى أشلاء صغيرة تفترش الأرض.

تتوقف كورتني عن الركض واضعة يدها على فمها في ذعر قائلة:

- آسفة، حقًا آسفة.

- لا يهم.

أجثم على الأرض محاولة لملمة أشلاء المزهرية فتقع عينيّ على شيء لم أكن أتوقع رؤيته أبدًا. مفتاح غرفة مكتب أبي.

●●●

تناولني كورتني هاتفي وهي تنقر بإبهامها على شاشته مشيرة إلى إحدى الرسائل الظاهرة على شاشته، الرسالة التي من المفترض أنني أرسلتها إلى إليوت، يقول نصها:

«يقولون أنك أمهرهم في الفيزياء على الإطلاق، هل باستطاعتك مساعدتي؟»

ألتقط المفتاح ثم أنهض لأضع قبلة على وجنة كورتني قائلة:

- لا أعرف كيف أشكرك!

تتراجع كورتني خطوة إلى الوراء وعلامات الدهشة تحتل ملامحها ثم تهمس متخوفة:

- ألن تصرخي؟ ألن تضربيني وتصبي عليّ اللعنات والشتائم بسبب الرسالة؟ ماذا عن المزهرية؟

- لا.. لن أفعل.

أقولها وأنا أعتصر المفتاح في قبضتي متبسمة في غموض. يقطع حوارنا رنين هاتفها فتجيب ثم تصدر بعضًا من الهمهمات والـ «حسنًا» تنهي بعدها المكالمة وتخبرني أن ذلك الاتصال من والدتها وأن عليها المغادرة في الحال، أودعها ثم أسرع لتنظيف أشلاء المزهرية وإخفاء آثار تلك الجريمة وأقوم بوضع مزهرية أخرى من غرفتي مماثلة تمامًا لها بدلاً منها.

أهرع بعدها إلى غرفة أبي، أفتحها ثم أتجه إلى مكتبه وأنا أعرف أنني على وشك عبور خطوط حمراء كثيرة لا يجب عليّ أن أتعداها.

●●●

الفصل الرابع

بيدين مرتعشتين أدير المفتاح في موضعه حتى ينفتح القفل فأسحب بعدها الجارور إلى الخارج ليظهر لي دفتر مذكرات أبي. أستل نفسًا عميقًا قبل أن أجلس إلى مقعده لتمتد بعدها يدي إليه ببطء معجون بالخوف.

جاثم أمامي على المكتب أنظر إلى الدفتر بعينين لا ترمشان وقلب تعدت ضرباته ربما الألف في الدقيقة! حسنًا أنا أبالغ، ربما تسعمائة فقط.

بعد مرور عدة دقائق من تلك المواجهة الصامتة تواتني الشجاعة أخيرًا وأقوم بفتح الدفتر.

في مستهله اقرأ جملة في منتصف الصفحة:

«إلى التي أتت، لونت عالمي بأكمله ثم أحرقته ورحلت، إليها سأكتب ما يلي»

أقلب الصفحة وأبدأ في قراءة المذكرات الفعلية:

«أردت أن أجرب كل شيء معك، أن أطوف العالم كله برفقتك، أن أصطحبكِ إلى المتاحف والمعابد، المساجد والكنائس، المسارح

والحدائق ومدن الملاهي، المزارات جميعها وحتى المقابر. حتى لا يبقى هناك مكان واحد فوق هذه الأرض لا يشهد على قصتنا معًا.

أردت أن أشاهد كل الأفلام بعينيك، أقرأ كل الكتب بصوتك، أستمع إلى كل الأغنيات بأذنيك، أتذوق كل الدنيا بطريقتك الخاصة.

كم رغبت بشدة أن أضحك، أبكي، أصرخ، أركض بصحبتك أنتِ فقط.

أن افترش الأرض، أتلحف بالسماء، أقتسم القمر والنجوم والشمس وذرات الأوكسيجين معكِ. كم تمنيت أن تشاركيني صباحًا شتويًا مشمسًا، نشكل فيه السحابات على أهوائنا، هذه قطة، وهذا أرنب، وهذا حصان. نقنع أنفسنا أنها غزل بنات هارب في طرقات السماء، وحين نمل نلتهمها ونضحك كأطفال في الرابعة من عمرنا.

تمنيت أن أقبلك ألف مرة، أعانقك ألف مرة، أن أضع يديّ في يديكِ ألف مرة.

«أحبك» أهمسها نائمًا على صدرك ألف ألف مرة، وأسمعكِ ترددينها في كل يوم ألف مرة.

أن أعيش على أرضكِ، أسكن بيوتك، أتنفس هواءكِ، أسبح في محيطاتك، وأموت وأحيا على كوكبكِ مرة تلو المرة تلو المرة.

قائمة أمنياتنا الطويلة لم نحقق منها إلا أشياء قليلة برغم كل تلك الأعوام التي عشناها معًا.

ما زالت الورقة معي منذ أن كتبناها سويًا، خطكِ الطفولي يهزني كلما تجرأت وحاولت قراءة السطور.

«سنظل نقرأها سويًا كل عام» آخر أمنية في طابور الأمنيات، حين أقرأها لا أملك إلا أن يغالبني البكاء.

في كل عام أفض ثنيات الورقة وأنتظر مع كل شيء حافظ على العهد معي، الورقة، والزمن والوعود والأمنيات، كل شيء ينتظر معي.. إلا أنتِ فلستِ هنا، كم تمنيت أن يحالفك الوفاء."

أتوقف عن قراءة المذكرات محاولة منع دموع أخرى من التسلل خارج عينيّ، أقوم بتصفح أوراق الدفتر سريعًا وألاحظ أن جميع المذكرات كتبت بتواريخ حديثة آخرها كان بالأمس. كاذب أنت يا أبي، سنوات تلو السنوات وأنت تطالبني أن أمحوها من عقلي وها أنت مازلت تتذكرها، تدون كل شيء كان بينكما كجداريات على حوائط معبد سري تزوره أنت فقط بشكل حصري من أجل إحياء كل شيء كان بينكما، تحيا به ليل نهار كراهب اعتزل الحياة واكتفى بحياته بين جدران ذلك المعبد. أحاول السيطرة على مشاعري وأكمل القراءة من جديد:

«ربما كتب علينا أنا وأبي أن نحيا في نسخ تجريبية مصغرة من الجنة. حين أوقفتنا تلك الغجرية اللحوح أنا وحياة، وأصرت على قراءة كفينا وافقت أنا تحت ضغط حياة تركتها تعبث بكفينا لعدة لحظات. نظرت إلينا بعدها مضيقة عينيها وهي تبتسم في خبث، استلت نفسًا عميقًا من أجل إضافة مزيد من الاثارة والتشويق، ثم بدأت الكلمات في الخروج من بين شفتيها بصوت أشبه بالفحيح: خطوط كفيكما متطابقة للغاية مما يدل على أنكما ستظلان معًا للأبد حتى يفرقكما الموت.

هكذا كانت نبوءتها المزعومة أو بالأحرى كذبتها الممولة بنقود اثنين آخرين من المغفلين المضحوك عليهما. ولا أحاول هنا أن أخلق لها الأعذار عندما أقول أن أكثر المتشائمين على وجه الأرض لم يكن ليتنبأ بتلك النهاية لنا. فقد كنا المادة الخام لقصص العشق، أيقونتان للحب، شيء أشبه بروميو وجوليت وقيس وليلى، على الأقل كنا كذلك لفترة من الزمن.

كنت دائمًا ما أتخيل علاقتنا ككعكة سينابون لذيذة، ينبغي علينا ألا نتناول منها الكثير كي لا نشبع أو تنفد الكعكة، لم يكن في حسباني أبدًا أن تفسد الكعكة.

ربما لم يكن مقدر لنا أن نظل سويًا إلى الأبد وعليّ أن أشكر الله على الفترة التي قضيتها معها برغم قصرها. فالورود

لا تظل ورودًا إلى الأبد، و مهما حاولت العناية بها فلن يطول عمرها عن الأجل المحدد لها، يومان؟ ثلاثة؟ أسبوع ربما؟ ثم ماذا؟ ثم تذبل، تنكمش و تموت في النهاية. تتساقط أوراقها ولا يبقى منها شيء. وإذا أردت أن تحتفظ منها بشيء فعليك بدفنها بين ثنايا كتاب ما لتصير جثة متحللة باهتة تذكرك بما كانت عليه يومًا ما. كذلك هي بعض العلاقات، تنشأ، تتوهج، تشتعل، ثم تنطفيء، تخبت وتموت. ولا يتبقى منها إلا بعض الأشياء التي نرغب في الاحتفاظ بها رغبة منا في التمسك بأشياء مادية تذكرنا أن ما عشناه كان حقيقيًا وحدث بالفعل. بعض الصور، الفيديوهات ربما، زجاجة عطر قاربت على النفاد، تذاكر سينما لفيلم رديء ارتدتماه سويًا، إيصال مشتريات لأشياء اشتريتماها من أحد الأسواق، الأغنيات التي استمعتما إليها أو ربما بعض الهدايا التي تبادلتماها على مر العلاقة. مجرد بخار تتشقه دون أن تلمس أو تتذوق الطعام الصادر منه ذلك البخار، محروم أنت منه حتى إشعار آخر.

تصارعك أحيانًا..."

صوت باب المنزل ينفتح فيصيبني بالهلع، أغلق الدفتر وأعيده إلى موضعه داخل المجرور، بالمفتاح أغلقه ثم أنطلق خارج الغرفة بسرعة الغرفة ومستخدمة موهبتي في كرة السلة

أقوم برمي المفتاح نحو المزهرية من مسافة ستة أمتار تقريبًا ليسقط داخلها في نفس اللحظة التي يدخل فيها أبي المنزل.

●●●

الفصل الخامس

كيف انتهت قصة العشق بينهما؟ وكيف استحالت نارها رمادًا؟

أشياء قليلة للغاية يمكنها أن تكتب كلمة النهاية لقصة بتلك الروعة، الموت أولها و أقواها.

ولكن هذا ليس ما استشعره فيما قرأته من كلمات في ذلك الدفتر، هناك شيء ما يخفيه أبي وسأحاول معرفته بإكمال قراءة ذلك الدفتر، فقط عليّ أن أكون حذرة كفاية كي لا يمسك بي متلبسة بالجرم المشهود. يجب أن...

- تاليا!

يخرجني ذلك النداء من شرودي فأغلق خزانتي ناظرة خلفي لأجد كورتني تقف مبتسمة في خبث.

- أمازلتِ تفكرين به؟

- من؟

تستنكر سؤالي رافعة حاجبها الأيسر فأتلعثم قائلة:

- أه أه، تقصدين إليوت؟

لا أستطيع بالطبع إخبارها بما يدور في عقلي بما قرأته ليلة أمس في دفتر أبي، فأقوم بتلفيق كذبة تليق بشرودي:

- نعم كنت أفكر في أنه لم يرد على رسالتي بعد.

أستل نفسًا عميقًا ثم أتصنع الغضب فجأة مستطردة:

- وعن المأزق الذي أوقعتني أنتِ فيه!

تتراجع كورتني إلى الوراء في دهشة حقيقية قائلة:

- هل أنتِ مخبولة؟ لم يكن الأمر يعني لكِ شيئًا بالأمس واليوم أشعر أنك على وشك قتلي!

- كنت.. كنت أظنه سيرد!

- سيرد، لا تقلقي، ربما هو فقط يتصنع صعوبة الحصول عليه، وذلك لماذا؟ ألأن بنيانه الجسدي لا يعقل؟ لأن عيناه لا تقاومان؟ لأن..

- شششششش..

- ماذا؟

- كورتني يكفي..

بعينين متسعتين أحاول اسكاتها فتكمل:

- ماذا؟ أتغارين؟ أنا لم أذكر بعد بقية محاسنه، أعني هل رأيتِ خصلات شعره الذهبية؟ أرأيتِ ابتسامته الساحرة؟

ناظرة خلفها أزم شفتيّ قائلة:

- أستطيع رؤيتها بوضوح شديد الآن فهو يقف وراءكِ وعلى وجهه تلك الابتسامة.

ببطء تستدير كورتني إلى الوراء، تتسع عيناها فور رؤية إليوت، تبلع ريقها في صعوبة ثم تغادر مهرولة تاركة إليوت ينفجر ضاحكًا وهو ينظر لي. فلا أملك إلا أن أبادله الضحك، كم هي معدية ضحكته، وباء جميل أتمنى الإصابة به للأبد.

مستندًا إلى خزانتي بمرفقه ينظر في عينيّ مباشرة ثم يشير إلى الهاتف بيده قائلاً:

- إذن، تحتاجين إلى مساعدتي ها؟

- قليلاً.

- مممم، لنلتقي في المكتبة بعد انتهاء الدوام المدرسي، هل يناسبك ذلك؟

أشعر أن قلبي سوف يخرج من صدري ويقوم بالرقص حولنا في جنون. أعيد خصلة هاربة خلف أذني ثم أجيبه:

- يناسبني جدًا.

- حسنًا إذن، أراكِ لاحقًا.

أومىء مبتسمة فيومىء هو الآخر ثم يغادر تاركًا قلبي يمد يديه نحوه محاولاً احتضانه وهو يقفز كالملسوع داخل صدري.

●●●

عشر دقائق هو الزمن الذي استغرقه لأصل إلى المكتبة فور انتهاء الدوام المدرسي. أبحث عن إليوت بين الأروقة والطاولات هناك ولكن لا أثر له، لم يصل بعد أو ربما أنا من أتيت مبكرًا. أنتقي طاولة صغيرة في أحد الأركان غير المزدحمة بالطلاب وأقرر الجلوس إليها.

أبعثر كتبي وأوراقي عليها قبل أن أضع حقيبتي جانبًا وأستعد لقدوم إليوت في أية لحظة.

تمر الدقائق دون أن يظهر ويتصاعد القلق بداخلي، تنصهر أعصابي شيئًا فشيئًا وأشعر أنني على وشك الغليان. تهتز ساقي لا إراديًا وتتجه يدي إلى الهاتف لتعبث به حتى تصل إلى

الرسائل النصية بيننا وأبدأ في كتابة رسالة جديدة إليه نصها «أين أنت؟». يتجه إبهامي إلى زر إرسال ولكنني أتردد للحظات ثم أقوم بمسح ما كتبته لتوي. من بعيد ألمحه قادمًا فأضطرب معيدة الهاتف إلى موضعه على الطاولة ثم أتظاهر بالانشغال متصفحة أحد الكتب أمامي. يقترب وقع أقدامه حتى يصل إلى الطاولة فأتجاهله مدعية انغماسي فيما أفعله. يتنحنح في خجل فأرفع عينيّ نحوه ببطء قاطبة جبيني، يرفع هو أحد حاجبيه مبتسمًا فأعجز عن الحفاظ على وجهي عابسًا وترتسم الابتسامة تدريجيًا على وجهي. تتسع ابتسامته أكثر لتظهر تلك الغمازة في جانب وجهه الأيسر مما يجعلني أود الاستلقاء في انحناءتها للأبد.

بيديه الاثنتين يمسك بكوبين بلاستيكيين ينبعث الدخان منهما، يضع أحدهما أمامي ثم يمد يده قائلاً :

- هل تأخرت؟ أنا آسف، مررت بستارباكس الذي يقع في نهاية الشارع كي أجلب لنا بعضًا من القهوة

أتجمد في موضعي للحظات قبل أن أمد يدي لأصافحه متلعثمة:

- لا لا، أنا من جئت مبكرًا. تفضل.

أشير له بالجلوس وأنا أحاول الهروب من نظرات عينيه المثبتة عليّ ثم أكمل:

- شكرًا على القهوة.

- من دواعي سروري.

يرتشف من كوبه ثم يجذب الكتاب نحوه مستطردًا:

- الفيزياء إذن ها؟ كيف يمكنني مساعدتك؟

في الحقيقة أنا بارعة جدًا في الفيزياء ولا أحتاج لمساعدته أو مساعدة أي شخص آخر بل على العكس يمكنني مساعدة الآخرين بها. تبًا، لم أقم بإعداد كذبة لائقة و لكنني سأحاول على أي حال.

- القوانين.

أبلع ريقي بصعوبة متلعثمة وأنا أعبث بأحد الكتب مشيرة إلى إحدى صفحاته مستطردة :

- القوانين معقدة ولا أستطيع استيعابها بشكل جيد! سيجن جنوني!

- مثل؟

أتصفح عدداً من الأوراق حتى تقع عيناي على أحد القوانين فأتنفس الصعداء قائلة:

- ذاك القانون مثلاً! لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه.

يرفع حاجبيه مندهشًا ثم يرتشف مجدداً من كوبه قبل أن يضعه قائلاً في شك:

- هل أنتِ متأكدة؟

يهرش في رأسه مكملاً:

- أعني إنه واحد من القوانين الأساسية والبسيطة للغاية، لا يحتاج إلى كثير من الشرح والتفسير.

ما يقوله صحيح مئة بالمئة، اللعنة، سيدرك أنني أفتعل كل ذلك كي أتودد إليه.

- أعلم و لكن.. ولكن أنا حالة ميئوس منها!

- حسنا لنعد إلى ذلك القانون مرة أخرى، من أجل أن تتفهميه بشكل جيد يجب أن نقوم بالتطبيق العملي له.

- كيف؟

وقبل أن أكمل كلمتي يضع هو كوبه على الطاولة ويقترب فجأة بوجهه مني فأتراجع أنا بجسدي ووجهي إلى الخلف بحركة فجائية حتى يتوقف هو عن الاقتراب أكثر ويظل وجهانا متقابلان لا يفصل بينهما إلا سنتيمتر واحد فقط ويتوقف الزمن بضعة لحظات.

لم أقترب منه إلى ذلك الحد من قبل الذي يجعلني أغرق في تلك البحار الصغيرة في عينيه، أنفاسه الحارة التي تحرقني بلا رحمة، وهل يجوز للشمس أن تقترب من الأرض بنفس الدرجة؟ مستحيل!

يبتسم عائدًا إلى جلسته، فأعتدل أنا الأخرى في مقعدي، يرتشف مجددًا من كوبه ثم يقول بكل ثقة مشيرًا إلى نفسه:

- كما رأينا، لكل فعل.

يشير إليّ مكملاً:

- رد فعل مساو له في المقدار.

يرفع كفيه الاثنين ليتقابلا مقلدًا بهما حركة وجهينا منذ قليل وهو يكمل:

- ولكنه لم يكن مضادًا له في الاتجاه، لقد أفسدتِ تطبيق القانون.

أضيق عينيّ ناظرة له في تحفز فيبتسم في خبث قائلاً:

- أعتقد أنك استوعبتِ القانون بشكل جيد، مما يجعلنا نناقش قانونًا آخر.

يشير بسبابته إلى قانون آخر بالكتاب قائلاً:

- يقول القانون هنا «الجسم الساكن يبقى ساكنًا، والجسم المتحرك يبقى متحركًا في خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة خارجية تغير من حالة السكون أو الحركة».

تتزايد ضربات قلبي تخوفًا مما قد يفعله هذه المرة محاولاً شرح القانون بطريقة عملية، و قبل أن آخذ حذري يكمل هو قائلاً:

- بمعنى أنني لو وضعت يدي ها هنا على يدك الساكنة في موضعها.

يقولها وهو يهبط برفق على يدي الموضوعة على الطاولة فأسحبها بسرعة قبل أن أتحول إلى أشلاء إثر لمسته تلك.

وكمن لدغه عقرب ألملم كتبي وأوراقي المبعثرة و ألقي بها في الحقيبة وهو يراقبني بعينيه في صمت حتى أنتهي قائلة بصوت يكاد أن يخرج:

- يكفي دراسة لهذا اليوم، لقد تأخرت.

- أرجو أن أكون قد ساعدتك!

بعينين متسعتين أجيب دون أن أنظر له:

- أكثر مما تظن!

- لازالت هناك الكثير من القوانين التي ينبغي عليكِ تعلمها .

- هل أنت متأكد أننا ندرس الفيزياء؟

- بلا أدنى شك.

يقولها مبتسمًا في هدوء فأستدير مغادرة قبل أن يسألني هاتفًا:

- متى سنلتقي مجددًا؟

و من دون أن أدير وجهي ناحيته أجيب في مكر محاولة إخفاء ابتسامة أخذت في احتلال وجهي:

- حينما أشعر أنني بحاجة إلى فهم المزيد من القوانين.

ثم أعدل من وضع الحقيبة على كتفي و أمضي.

●●●

الفصل السادس

- ممم ومتى سيحين موعد الدرس التالي؟

تقولها كورتني مبتسمة في خبث قبل أن تغمس إصبعًا من البطاطا المقلية في الكاتشب ثم تقضمه وتتجه يدها لانتزاع ضحية جديدة من الطبق البلاستيكي أمامها.

قمت أنا باستغلال استراحة الغداء المدرسية وأخبرتها بما حدث مع إليوت في المكتبة بالأمس، هاربة من السؤال أدير وجهي إلى النافذة يساري متفحصة الأشجار بحديقة المدرسة بحثًا عن إجابة لسؤالها وأشرد للحظات قبل أن تنقر هي باصبعها على الطاولة التي نجلس إليها وهي تهتف بي:

- تاليا!

أعود من شرودي إليها، إلى طاولتنا، الطعام الموضوع أمامنا، الطلاب الجالسين حول الطاولات المتناثرة حولنا، أعود إلى كافيتيريا المدرسة التي تحتوينا في تلك اللحظة. في تشكك أجيبها:

- لا أعرف يا كورتني، ربما عليّ أن أتوقف عن فعل ذلك.

تتوقف هي عن مضغ الطعام قبل أن تفلت إصبع البطاطا من يدها ليسقط في الطبق وهي تهتف بي:

- عن فعل ماذا يا تاليا؟

- يعني، أنتِ تعرفين، تلك اللقاءات، إليوت.. كل شيء.

- لقاءات؟ إنه مجرد لقاء واحد ولم يكتمل حتى!

تزيح الطبق جانبًا، تمسح فمها ويدها بمنديل ورقي ثم تكمل:

- أنا حقًا لا أفهمك، أنتِ معجبة به منذ ماذا؟ شهرين؟

أصحح لها رافعة ثلاثة أصابع.

- ثلاثة أشهر.

- ثلاثة أشهر! والآن حينما حصلتِ على فرصة لقضاء بعض الوقت معه تريدين القائها بسلة القمامة؟ ترغبين في التخلص منها؟

- كورتني الأمر ليس بذلك السهولة.

كيف أشرح لها كل شيء، كيف أخبرها عما أخفيه من أسرار أنا نفسي لا أعرف نصفها

كيف أقص عليها حقيقتي، عن هويتي المزيفة، اسمي المزيف، جنسيتي، ديانتي، حياتي المزيفة! كلها أشياء تحرمني الحق في العيش حياة طبيعية، حياة كسائر الناس.

كانت الحياة أفضل بلا شك حينما كان إليوت خارج عالمي، نظرات، ابتسامات، وتحيات متبادلة ولا شيء غير ذلك. ولكن الآن بعد أن تطور الأمر، و أصبحنا نلتقي، نتحدث و..

أتذكر إمساكه ليدي فأضطرب قليلاً ثم أعود إلى أفكاري. الآن ماذا سيحدث؟ المزيد من اللقاءات؟ الاتصالات، الضحكات، اللمسات، التنزهات طويلة والمزيد من الجلسات في المطاعم والمقاهي؟ سنتشارك الأغنيات المفضلة ونشاهد الأفلام سويًا، نتبادل الهدايا. ثم ماذا؟ مشادات وشتائم و و انفصالات ومصالحات. ثم ماذا؟

مستحيل أن يتطور الأمر أكثر من ذلك؟ في النهاية ستتوقف العلاقة عند ذلك الحد لأنه لن يكون باستطاعتي اخباره بحقيقتي البائسة. ولذلك فأنا أفكر، ما الفائدة في التورط بعلاقة أعرف مسبقًا كيف ستنتهي؟

يرن هاتفي بنغمة قصيرة تعلن عن وصول رسالة جديدة، على شاشة الهاتف يطفو اسم إليوت، أفتح الرسالة لأقرأ محتواها فيضطرب قلبي وتتضاعف عدد دقاته بشكل فجائي.

- إليوت ها؟

تسألني كورتني فأومىء في صمت لتسألني هي مجددًا:

- ماذا يقول؟

ببطء أرفع شاشة الهاتف في مستوى عينيها لتقرأ فتبدأ بعد ثوان عيناها في الاتساع تدريجيًا، أنزل الهاتف وأعيد قراءة الرسالة مرة أخرى قبل أن أستل نفسًا عميقًا وأنظر مجددًا إلى النافذة يساري وأنا أتمتم محتوى رسالته «عيد الحب سيحل بنهاية الأسبوع القادم، هل تكونين رفيقتي؟»

●●●

الفصل السابع

عيد الحب! رفيقته! وبعد يوم واحد فقط من لقائنا؟ لقد جن إليوت تماماً، لابد أن الخبال أصاب عقله أو دمر شيئًا ما في خلاياه. أي قطار بخاري يود إليوت أن تستقله علاقتنا؟ وأنا من كنت أظنه خجولاً وإنه سيتمهل كثيرًا قبل أن يتخذ أي خطوات متهورة في تلك العلاقة، كم أن بلهاء!.

توعكت معدتي على إثر كل تلك الأفكار الدائرة في عقلي فقمت بالاستئذان مبكرًا من المدرسة وعدت إلى المنزل، وها أنا أجلس مجددًا إلى مكتب أبي وبين يديّ أحمل دفتر مذكراته، ينتابني الفضول لمعرفة المزيد عما يخبئه من أسرار. أملك من الوقت ساعتين قبل أن يعود من عمله.. لأقرأ:

«تصارعك أحيانًا فكرة التخلص من جميع الأغراض التي تربطك بتلك القصة وبذلك الشخص، الصور الفوتوغرافية؟ الهدايا؟ عبوات العطور؟ ساعة يد أو كتاب؟

ماذا عن النظرة الأولى؟ اللمسة الأولى، كلمة أحبك حينما تقال للمرة الأولى، تلك الكهرباء التي تسري في جسدك حينما تتشابك أصابعكما للمرة الأولى، تلك الراحة اللانهائية التي تغمرك عند أول عناق بينكما.

أشياء كتلك كيف تتخلص منها في سلة المهملات؟ أنت تحلم.

يذكرني هذا بأحد الأفلام الأمريكية "Eternal Sunshine of The Spotless Mind"

وهو أحد الأفلام الرومانسية المخلوطة بالفانتازيا.. حيث يذهب البطل بعد انتهاء علاقته الفاشلة إلى أحد العيادات المتخصصة في محو الذكريات المرتبطة بمن كنت تعشقه، ويقرر أن يقوم بالتخلص من كل شيء داخل عقله يتعلق بمن أحبها. يقومون بتنويمه، وإيصاله بحاسوب ثم يتم محو كل شيء في دقائق. وفي خضم تلك العملية يجد البطل نفسه يحيا داخل تلك الذكريات التي أصبحت على وشك الهلاك. نادمًا يحاول التمسك بها لتنهار أمامه الواحدة تلو الأخرى ويطرد منها ليستيقظ في النهاية ناسيًا كل شيء يتعلق بحبيبته.

أعتقد أحيانًا أنني مثله، أحاول التشبث قدر المستطاع بذكرياتي معكِ، بكل التفاصيل التي تربطني بكِ، أحاول جاهدًا ترميم ذلك البناء الذي انهار منذ زمن بعيد، لا أرغب في الاقتناع أو التصديق أنه لم يعد صالحًا للمكوث فيه. وربما سينهار كل شيء من حولي لأدفن في النهاية بين الأنقاض حيًا.

ربما هجرتي إلى هنا قد أنقذتني قليلاً من كل ذلك، فقد هربت من كل شيء يذكرني بكِ هناك في مصر، حتى رائحة الهواء.

وهذا ما يجعلني أعلم جيدًا أنه من الخطأ أن تصطحب معك من تحب إلى كل الأماكن التي تحب ارتيادها، فبعد أن يفارقك من تحب لن يكون لديك الشجاعة كي تذهب إلى تلك الأماكن بمفردك في مواجهة الذكريات القابعة هناك.

سوف تتكالب عليك، تنهش روحك، تلتهمك قطعة قطعة، وتحيل ما تبقى منك إلى فتات غير صالحة للعيش. أشباحكما ستجدها هناك في كل ركن و في كل زاوية.

على تلك الطاولة أنتما تجلسان، تتناولان فطوركما، تطعمك هي من شطيرتها فتضحك ثم تقبل يدها. أمام ذلك المتجر تقفان، تشاهدان سويًا ما يعرض بواجهته، تتهامسان ثم تقرر هي الدخول قبل أن تجذبك معها إلى داخل المكان.

دور السينما، المقاهي، المطاعم، المكتبات، المتاجر، الشوارع. ملايين الأشباح ستحاوطك أينما وطأت قدماك وأينما أدرت وجهك، فكيف الحال اذن داخل قلبك حيث تم الاحتفاظ بكل تلك الذكريات فوق آلاف الأرفف؟ ولأنني كما قلت من قبل أتشبث بكل شيء يتعلق بكِ أصبحت بعد ذلك كالمتسولين أذهب

إلى كل تلك الأماكن بحثًا عن ذكرى هنا أو أفتش عن ذكرى هناك، أعانق تلك الأشباح وأبكي بين الطلائل كالمجذوبين.

مازالت رائحتكِ تفوح من متعلقاتي، أجن وألعنها وألعنك ألف مرة و أضحك ثم أبكي لأتخيلك في النهاية فتتجسدين أمامي بكل تفاصيلك، أعانقكِ برفق كي لا أهشم جسدكِ التخيلي، اشتم رائحتكِ وكأنكِ حاضرة معي، أهمس في أذنكِ ببضعة كلمات ثم أبكي على كتفك، تنحدر دموعي ساخنة فتزيد لوعتي واشتياقي التهابًا. أغفل واحتضنكِ بقوة أكبر فيتفتت جسدكِ الواهي بين يديّ و يتلاشى كالدخان ولا يبقى منكِ إلا دموعي التي تتساقط أرضًا.

في كل عناق بين حبيبين أراكِ، في كل قبلة، في كل يدين متشابكتين.

كنت أتمنى لو أن هناك ما يشبه الحبات المسكنة، أتناولها فيسكن ألمي، تهدأ لوعتي، يقل اشتياقي لكِ، حبات مضادة، يصفها الطبيب إليّ بجرعات عالية "Anti-Haya" ٢٠٠ ملليجرام، ألقمها فيسكت الصراخ بداخلي ويخلد الشوق إليكِ إلى الموت حتى ولو بشكل مؤقت.

صنعت الأحلام كي تجعلنا نمتلك ما ليس لنا في الحقيقة ولو للحظات قليلة، وأحمد الله على تلك الأحلام فانها السبيل الوحيد الآن كي أحظى بكِ في كل ليلة.

والليلة حظيت بكِ.

●●●

الفصل الثامن
مظروف أحمر

في صبيحة اليوم التالي كنت أقف مستندة إلى خزانتي تاركة أفكاري تتصارع داخل عقلي بلا هوادة، لتأخذني تارة إلى تلك المذكرات التي دونها أبي وتارة تذهب بي إلى عرض إليوت المفاجىء والمثير للدهشة. يخرجني رنين الجرس الأول للحصص من شرودي فأقرر فتح الخزانة من أجل أخذ بعض الكتب التي تخص الحصص القادمة.

أمد يدي نحو أحد الكتب بطريقة آلية فتستوقفني رؤية مظروف أحمر كبير أنيق مثبت بعناية إلى باب الخزانة من الداخل بجانب ملصق فيلم كازابلانكا الذي أضعه دومًا هنا، مدون على المظروف بخط أسود منمق «افتحيني».

أنتزعه من باب الخزانة برفق ثم أفتحه لأجد عدة أشياء بداخله. ورقة باللون الأزرق السماوي مطوية عدة طيات ألتقطها ثم أفرد طياتها وأبدأ بقراءة ما فيها:

«أعلم أنك قد صعقتِ من رسالتي بالأمس ولعلك تتساءلين كيف أقدم لكِ عرضًا بمثل تلك الغرابة، أعني كيف لاثنين مثلنا

قد تقابلا لتوهما ولمرة واحدة فقط أن يتفقا على الخروج سويًا في عيد الحب دون أن يكونا مغرمين من الأساس.

حسنًا، ربما ليس بعد..

أعلم أن الدهشة استولت عليكِ الآن، لا داعي لاستباق الأحداث، سأوضح لكِ في السطور القادمة ما أقصد. ستة أيام هي ما يفصلنا عن الرابع عشر من فبراير، وستة أيام فقط هي ما كل ما أحتاجه كي أجعلك تقعين في حبي.

قمت بعمل خطة زمنية تخص السبعة أيام القادمة، في كل يوم سنذهب سويًا إلى مكان مختلف، لنفعل شيئًا فريدًا من نوعه. بداخل المظروف سوف ستجدين خريطة لمانهاتن بها كل الأماكن التي سوف نذهب إليها، وعددًا من الدبابيس الملونة لوضعها على النقاط السبع التي سنزورها سويًا، والتي لن تعلمي عنها شيئًا إلا قبل ساعة من الذهاب إليها في كل يوم.

اليوم سأرسل إليكِ مظروفًا آخر يحتوى على المعلومات التي تخص إحداثيات المكان الذي سنرتاده اليوم فانتظري.

إليوت

أنتهي من قراءة الرسالة ثم أعيد قراءتها عدة مرات قبل أن أستوعب كل ما قاله، أعيد الرسالة داخل المظروف ثم أضعها بحقيبتي، أغلق الخزانة وأسير متجهة إلى حصة الكيمياء وأنا أبتسم كما لم أبتسم بحياتي من قبل.

●●●

شاردة بطبق الشوربة أمامي أقلب ما فيه بالملعقة محاولة استرجاع ما حدث اليوم في عقلي، وقراءة تلك الرسالة التي تركها لي إليوت بالخزانة، أعتقد أنني صرت أحفظها عن ظهر قلب، كل كلمة، حرف، أو فاصلة. صوت خبطتان ملعقة بأحد الصحون يخرجني من ذلك الشرود ناظرة إلى أبي الذي يمسك ملعقته في تحفز قائلاً:

- من كوكب الأرض إلى السفينة الأم، هل أنتِ بخير؟ حول!

أبتسم أثر مزحته تلك وأنا أرتشف من الطبق أمامي محاولة التظاهر بأن كل شيء على ما يرام، ومن دون أن أنظر إليه أجيب بصوت خافت هادىء لا يتناسب أبدًا مع العاصفة التي تدور بداخلي:

- أنا بخير، لا تقلق.

- هل أنتِ متأكدة؟

أومىء برأسي مؤكدة ثم أرد قائلة:

- الأمر فقط أنني لم أنم بشكل جيد ليلة البارحة.

- مممم، حسنًا، يمكنك الحصول على قسط من النوم بعد الانتهاء من الطعام.

اللعنة، انقلب السحر على الساحر.

- لا أستطيع، فسوف أخرج اليوم، أعني الليلة.

يرفع حاجبيه متوقفًا عن مضغ الطعام فأحاول إصلاح تلك الكذبة مكملة:

- أعني في أي وقت.

- إلى أين؟

- لا أعلم.

- ماذا؟

- أعني لا أعلم بعد.

- مع من؟

- بمفردي.. ربما.

الكذبة تكبر شيئًا فشيئًا، تسد حلقي، أعتقد أنني أعجز عن التنفس.

يجفف فمه بأحد المناديل ثم ينظر لي مضيقًا عينيه محاولاً التسرب داخل عقلي لمعرفة ما أخفيه عنه. أنظر له قائلة بطريقة هجومية قبل أن تنهار دفاعاتي أمام تلك النظرات:

- ماذا بك؟

- ماذا بي أنا؟ لا شيء، سوف أخرج اليوم أو الليلة، لا أعرف بالضبط، ولا أعلم إلى أين سأذهب و مع من. هذا هو كل شيء.

تتدافع الكلمات من فمه بنبرة ساخرة تجعلني عاجزة عن النطق، عليّ أن افكر سريعًا في رد مناسب. أحاول الهروب من عينيه، أجفف فمي، ثم أعيد خصلة هاربة من شعري خلف أذني، محاولة بائسة لكسب مزيد من الوقت حتى يتسنى لعقلي تحضير كذبة معقولة. وأخيرًا أجيبه:

- أبي أنت تضخم الأمور! كل ما في الأمر أن إحدى صديقاتي دعتني اليوم للخروج معها دون أن تعلمني إلى أين ومتى سنذهب، قالت أنها ستتصل لاحقًا اليوم لتبلغني بكافة التفاصيل.

- وما اسم صديقتك هذه؟

- إليـ.. إحم.. إليانور.

كدت أن أتسبب في كارثة!

- حسنًا، دعيني أعرف حالما تتصل صديقتك.

- بالتأكيد.

ينهض هو متجهًا لدورة المياة، فأستل نفسًا عميقًا قبل أن أخرجه وأنا أحمد الله على مرور الأمر بسلام. وقبل أن أحاول السيطرة على أعصابي كليًا يرن جرس الباب فأنهض محاولة السير دون أن أتعثر حتى أصل أخيرًا إليه، ومن العين السحرية أنظر فلا أجد أحدًا. يقتلني الفضول فأفتح الباب في حذر ناظرة في كل اتجاه، لا شيء!

أعود إلى الوراء خطوتين وقبل أن أغلق الباب يخطف بصري شيء ما ملقى على الأرض تحت أقدامي، مظروف أحمر كبير يماثل ذلك المظروف الذي تركه إليوت في خزانتي اليوم.

●●●

الفصل التاسع
شموس صغيرة

الثامنة مساءً وها أنا أقف على جسر القوس أو Bow Bridge الذي يمر فوق بحيرة سنترال بارك. في منتصفه تمامًا أنتظر متبعة تعليمات إليوت بالضبط كما جاءت في ذلك المظروف الثاني الذي تركه على عتبة باب منزلي.

نسمة هواء خريفية باردة تهب على المكان فتجعل القشعريرة تسري في جسدي، أرتجف وأنا أفرك يديّ ثم أنظر إلى الوقت بهاتفي المحمول قبل أن تتهادى إلى مسامعي صوت أغنية ما يقترب شيئًا فشيئًا آتيًا عبر البحيرة. تمر عدة لحظات قبل أن يتعاظم الصوت ويتضح مصدره، قارب خشبي ذو مجداف واحد، يحمل على متنه شخص واحد فقط هو من يقوم بقيادته، يرتدي ملابسًا تتشح بالسواد، بنطال أسود وقميص قطني أسود ذو قلنسوة تخفي معالم وجهه بالكامل، يقترب أكثر حتى تشمله دائرة الضوء القادمة من ناحية الجسر، يتوقف عن التجديف، يعيد القلنسوة إلى الوراء فتتضح ملامحه، وإبتسامته المعدية، إليوت.

بعد قليل أكون على متن ذلك القارب معه، وبعد دقائق من الصمت أنظر إليه قائلة:

- من أين جئت بكل تلك الثقة؟

- لا أفهم؟

- أعني أنني سوف أقع في حبك في ستة أيام كما قلت.

ها هي تلك الإبتسامة ترتسم على وجهه قبل أن يجيبني وهو ينظر إلى البحيرة:

- إذا أردتِ اختصار تلك المدة فلا بأس، فلنجعلها خمسة أيام، أو ثلاثة.

يوجه عينيه إليّ ودون أن يرمش يكمل قائلاً:

- أو ربما عدة ساعات تكفي، فاليوم مناسب جدًا للوقوع في الحب.

قلبي يصفق كطفل في الرابعة قد شاهد للتو عرضًا سحريًا رائعًا، أخبره بأنه معاقب وآمره بالدخول إلى غرفته والكف عن إصدار المزيد من الجلبة. يخبط الأرض بقدميه إعتراضًا وهو يصرخ فأهتف به بصوت مسموع: توقف!

- ها؟

يقولها إليوت مندهشًا وهو يتوقف عن التجديف، سيظن أنني جننت أو شيء ما، أعقد حاجبيّ هاتفه به:

- توقف عن قول مثل تلك الأشياء!

- لماذا؟

تبًا لتلك الابتسامة التي تجعلني أود احتضان العالم بأكمله.

- نحن بالكاد نعرف بعضنا البعض.

- وهل يحتاج الحب إلى مدة معينة كي يحدث؟

- بالطبع!

- حسنًا، كم تبلغ تلك المدة؟

يقولها متهكمًا فأغتاظ مجيبة:

- الأمر ليس بتلك البساطة، إنها ليست مسألة حسابية.

- تاليا، صدقيني، الأمر بسيط جدًا، أن يحدث الحب أو لا يحدث على الإطلاق.

أقرر أغاظته فأرد قائلة وأنا أنظر إلى السماء:

- إذن أعتقد في حالتنا تلك أنه لم ولن يحدث على الإطلاق، على الأقل من ناحيتي.

تتلاشى الابتسامة من ملامحه تمامًا وأعلم الآن أنني تماديت قليلاً فيما قلته. تفلت يديه المجداف ثم يقترب جالسًا بجانبي، وبنظرة يملؤها العتاب يسألني:

- تاليا، أجيبيني بكل صدق، ما الذي أتى بكِ الليلة؟

للحظات أعجز عن النطق، عيناه تحاصرني فلا أستطيع الهروب منهما، وقبل أن أتهيأ لقول شيء ما يضع إصبعيه السبابة والوسطى على شفتيّ قائلاً:

- ستة أيام، ستة أيام فقط هي كل ما أطلبه منكِ، بعدها سنرى ماذا يمكن أن نفعل. إذا فشلت فسأخرج من عالمك للأبد.

أجيبه وأنا مازلت تحت حصار عينيه:

- وإذا نجحت؟

- سوف يكون لدي أمنية واحدة وقتها.

- ما هي؟

يرفع هاتف لاسلكي محدثًا شخص ما على الطرف الآخر، يبتسم قائلاً في هدوء:

- الآن.

ومن خلفنا تلتقط عيناي انعكاس عدة أضواء تتراقص على مياه البحيرة، أدير وجهي ناحية مصدر تلك الأضواء فأشاهد عشرات الفوانيس الورقية المضيئة تتصاعد متجهة إلى السماء كشموس ولدت لتوها و قررت الذهاب لمداراتها المعدة لها من قبل.

من سماعات القارب تلعب أغنية Golden Age – Speakers في نفس الوقت الذي تحتل فيه تلك الشموس الصغيرة الليل حولنا.

يغادر قلبي غرفته وهو يصفق من جديد، يرقص، يقفز، يضحك دامعًا، يدور حول نفسه عدة دورات قصيرة حتى تهتز الأرض تحت قدميه ويكاد يسمعها كل سكان مانهاتن.

ناظرة لإليوت أسأله:

- لم تقل لي ما هي الأمنية؟

يبتسم ثم يخرج قداحة من جيبه، و يلتقط فانوسًا ورقيًا من أرضية القارب، يشعله ثم يناولني إياه فنمسكه سويًا، يهمس قائلاً:

- خلق الله الأرض في ستة أيام، أفلا يستطيع أن يخلق الحب في قلبك تجاهي في نفس المدة؟ لذلك دونت أمنية واحدة، أمنية واحدة فقط على كل واحد من تلك الفوانيس التي أرسلتها للسماء لتوي.

على أحد جوانب الفانوس ألحظ بعض الكلمات المدونة عليه بخط أحمر أنيق:

«أتمنى أن تقعي في حبي».

●●●

الفصل العاشر

في صباح اليوم التالي حالما أدلف إلى المدرسة وأعبر الرواق المؤدي إلى الخزانات أشعر بعشرات الأعين المسلطة عليّ، ونصف ذلك العدد من الأفواه يهمس سرًا باسمي. ليس لديّ أدنى دليل بشأن كل ذلك. متجاهلة المزيد من النظرات والهمسات أصل أخيرًا إلى خزانتي التي تنتظرني عندها كورتني وعلى وجهها ترتسم ابتسامة بحجم المدرسة بأكملها. مضيقة عينيها تهمس بنبرة شبه ساخرة:

- أهلاً بالآنسة رابنزل!

يستغرق مني الأمر بضعة ثوانٍ قبل أن أستوعب كل شيء، أومىء برأسي هامسة لنفسي وأنا أنظر لكل من حولي:

- هذا إذن السر وراء تلك النظرات والهمسات و الـ...

أضيق عينيّ ناظرة لكورتني، أزم شفتيّ ثم أقترب منها هامسة:

- ولكن كيف عرف الجميع بالأمر؟

تبتسم كورتني بركن شفتيها الأيمن ناظرة للسماء في نفاد صبر ثم تنظر لي وهي تكاد أن تفترسني:

- أتمزحين؟ لا يمكن لأحد أن يطلق عشرات الفوانيس المضيئة في سماء مانهاتن من دون أن يعرف نصف سكانها على الأقل بذلك!

- يا إلهي! هذا أسوأ من ....

- نشرة الأخبار المدرسية.

تكمل هي ما كنت على وشك قوله بالفعل وكأنها تقرأ أفكاري.

تتبدل ملامحها فجأة وهي تقترب مني هامسة في خبث:

- ولكن أخبريني، كيف كان الأمر؟ ساحر ها؟

أتردد قليلاً فتلكزني هامسة وهي تحثني بعينيها على الإفصاح عن رأيي فأجيبها:

- نعم. كان شيئًا يفوق الخيال، وكأنني بطلة أحد أفلام ديزني للرسوم المتحركة.

تقترب كورتني مني حتى تكاد تلاصقني قبل أن تهمس مجددًا:

- وهل.. قبلكِ؟

- اخرسي!

انطقها بصوت عالٍ نسبيًا قبل أن أستوعب أنني قمت بلفت انتباه جميع من حولنا فأخفض صوتي مجيبة:

- لا، لم يصل الأمر إلى ذلك الحد.

- شيء مؤسف.

أنهرها:

- كورتني!

- حسناً، ربما في الموعد القادم.

- كورتني توقفي عن قول مثل تلك الأشياء، لن يحدث أي شيء بيننا، أعني لن يتطور الأمر إلى ذلك الحد.

تمسك بكتفيّ مثبتة عينيها في عينيّ قائلة:

- ألستِ معجبة به؟

- بلى.

- ومن الواضح أنه مفتون بكٍ، الفتى على استعداد أن يقتل تنيناً ينفث النار من أجلك.

أبتسم محاولة ألا أذهب في هستيريا من الضحك قبل أن أجيبها:

- نعم ولكن..
- ولكن ماذا؟
- لا أريد أن أستبق الأمور، أو أندفع بمشاعري في تلك القصة كما يفعل هو.
- تاليا، ربما تكون علاقتكما قد بدأت رسميًا منذ ليلة البارحة، ولكنها بدأت فعليًا منذ ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر من النظرات والضحكات المتبادلة، ثلاثة أشهر من تلك العلاقة الأفلاطونية الصامتة.
- لا أعرف يا كورتني، ربما أنتِ على حق، ربما أنا أبالغ قليلاً، أو ربما أنا خائفة بعض الشيء.
- تاليا، السفينة إن ظلت راسية بالشاطىء فلا طائل منها.
- ماذا تعنين؟
- أعني، افردي أشرعتك و أبحري، فحتى وإن أغرقتك الأمواج فعلى الأقل سوف تزورين شطآناً لم تعرفي عنها شيئًا من قبل.

أبتسم على إثر ما قالته كورتني ثم أحتضنها لا إراديًّا مغمضة عينيّ.

●●●

أنتهي من تمرين كرة السلة ثم أذهب بعدها للاستحمام وقبل أن تنتهي الاستراحة بقليل اتجه لخزانتي لأخذ أحد الكتب من أجل الحصة القادمة فأجد مظروفًا أحمرًا ثالث.

●●●

أمام إحدى صالات التزلج الثلجية المغلقة الشهيرة بمانهاتن أقف مترددة لعدة لحظات قبل أن أقرر الدخول في النهاية. الصمت يخيم على المكان بالداخل لدرجة تجعلني أرتاب ويحتل القلق بداخلي مساحات شاسعة، هل جئت إلى المكان الخاطئ؟

أتوقف عن السير، ألتقط الحقيبة المعلقة على كتفي ثم أخرج منها المظروف الأحمر، أفتحه وأقرأ ما تم تدوينه بالورقة الصغيرة بداخله:

«مركز ليفراك للتزلج – الحادية عشرة صباحًا»

ثم أنظر للصورة الفوتوغرافية المرفقة بالمظروف حيث تحتل واجهة المركز الصورة بأكملها، تمامًا كما رأيتها قبل أن أدخل منذ بضعة لحظات.

أعيد كل شيء إلى الحقيبة مجددًا ثم أغلقها وأسير بخطوات متمهلة عبر الرواق المؤدي إلى القاعة الرئيسية. في النهاية أصل لأجد الظلام يسيطر على كل شيء باستثناء بعض الأضواء الخافتة الآتية من ناحية شباك التذاكر، أتجه إليه بخطىً مسرعة فلا أجد أحدًا يجلس به، أعتقد أن الوقت مناسب جدًا للركض الآن والهروب من ذلك المكان. أستدير لأركض فأرتطم به، إليوت.

صرخة قصيرة تخرج مني قبل أن أسقط حقيبتي أرضًا على إثر المفاجأة، أصرخ به قائلة:

- لقد أخفتني!

يقترب هو مني أكثر، يضع إصبعيه السبابة والوسطى على شفتيّ وهو يبتسم قائلاً:

- لا داعي للخوف، إنه أنا.

أبتعد عنه وبلهجة ساخرة أرد:

- حقًا؟ يبدو الأمر وكأنك جئت بي إلى هنا كي تقتلني.

- أقتلك؟

- أو تفعل بي شيئًا آخر.

يتأفف إليوت قائلاً:

- يا إلهي.

أدور حوله وأنا أنظر في أنحاء المكان، أقرأ سطورًا وهمية على الجدران حولي:

- تاليا آدم، الفتاة المدرسية ذات السبعة عشر ربيعًا، تم قتلها صباح اليوم الخريفي الرائع على يد مجهول داخل إحدى صالات التزلج الثلجية المهجورة وقد تم العثور على جثتها بعد أن..

- مهجورة؟ تاليا توقفي عن ذلك العبث.

- نعم، أليست تلك الصالة مهجورة؟

يقترب إليوت مني قائلاً في حماس:

- لا، من المفترض أن الصالة مخصصة من أجل بعض المباريات الرياضية في الأيام المحددة، وفي الأيام الأخرى فهي مفتوحة للجميع من أجل التزلج وبعض مسابقات الرقص كل ما في الأمر أن والد أحد أصدقائي يمتلك المكان وقد تصادف أن اليوم هو موعد الصيانة الشهري له، لذلك طلبت منه أن يقرضني إياه لساعتين فقط

وقد وافق. وبالتالي فالمكان ملكنا للمئة وعشرين دقيقة القادمين.

يبدو أنني قتلت الحماس المسيطر عليه لأنه يتلاشى عن وجهه ليحل العبوس محله وهو يقترب مني قائلاً:

- لا تبدين سعيدة بالأمر.
- لا.. أنا أقدر ما فعلته، حقًا. ولكن المكان يبدو موحشًا، ومظلمًا أيضًا.
- لا داعي للتسرع يا آنسة!
- لقد جعلتني أتخلى عن نصف الدوام المدرسي من أجل هذا، يستحسن أن يكون شيئًا يستحق.
- لن تندمين.
- ماذا سترسل إلى السماء هذه المرة؟ كرات ثلج؟

يقهقه ثم يركض إلى خلف شباك التذاكر يحدث جلبة لبضعة ثوانٍ، يبدو أنه يلتقط شيئًا ما، ثم يعود راكضًا مرة أخرى وهو يحمل زوجين من الأحذية المخصصة للتزلج. يتجه إلى إحدى الأرائك المثبتة حول صالة التزلج وهو يشير إليّ بأن أتبعه فأفعل. يشير إليّ بالجلوس فأضع الحقيبة جانبًا

وأجلس فيضع هو زوجا الأحذية أرضًا ثم يجثم على ركبتيه تحت قدميّ، و برفق يخلع حذائي الواحد تلو الأخر وعلى وجهه ترتسم ابتسامة مطمئنة.

يلبسني الحذاء المخصص للتزلج بطريقة أشعر معها أنني عدت طفلة في الخامسة، ينتهي من عمله فيربت على الحذاء ثم ينهض قائلاً:

- الآن أنتِ جاهزة.

يجلس على الأريكة، يخلع حذاءه ثم يرتدي الحذاء الآخر بسرعة ثم ينهض واقفًا ويتحرك حتى يقف أمامي، يمد يديه إليّ فأنظر إليهما مترددة قبل أن ألامسهما بيديّ فيمسكهما جيدًا ثم ينظر في عينيّ هامسًا:

- والآن، ثقي بي.

يساعدني على النهوض ثم يسير ببطء إلى الخلف وهو مازال ممسكًا بيديّ، أكاد أن أتعثر فيسعفني ويعيدني إلى وضع الثبات قبل أن يسير بي مجددًا حتى نصل إلى منتصف دائرة صالة التزلج فيفلت إحدى يديّ ليضع يده خلف ظهري، يقترب أكثر قبل أن يهمس في أذني:

- من قال أن المكان موحش؟

تنطلق بعدها في أنحاء المكان إحدى الأغنيات في اللعب

Someone To Stay – Vancouver Sleep Clinic

يهمس مجددًا:

- ومن قال أن المكان مظلم؟

يعمل بعدها أحد المصابيح مسلطًا بقعة ضوء دائرية بيضاء علينا، ثم يعمل بعدها عدد من المصابيح الأخرى ذات ألوان متعددة لتضيء المكان حولنا وهي تدور في كافة أنحاء الصالة.

وعلى نغمات الأغنية التي تلعب يبدأ إليوت في الرقص معي ونحن ندور ونتحرك داخل تلك الدائرة، تتراقص تلك الأنوار حولنا. ومن نقاط متعددة من سقف الصالة ينطلق دخان اصطناعي ليحاوطنا بطريقة أشعر معها بأننا نرقص فوق السحاب. من دون أن أشعر أجد رأسي يتجه ليستريح على كتفه وأنا أبتسم مغمضة عينيّ.

تمر عدة لحظات قبل أن يهمس بأذني مجددًا:

- انتظري، هذا ليس كل شيء، أنظري.

أرفع رأسي عن كتفه إلى الناحية التي يشير إليها، إلى لوحة إعلان النتائج ليظهر بالتتابع عليها حروف اسمينا و كأننا فريقان يلعبان مباراة بالملعب الآن:

تاليا X إليوت

و تحت اسمينا تتغير نتيجة المباراة بشكل جنوني حتى تظهر عدة علامات استفهام في النهاية ثم تبدأ جملة ما في الظهور:

«من يهتم؟ الفريقان فائزان في كلا الحالات»

ثم تتحول علامة الاكس بين اسمينا إلى قلب أحمر يكبر بها ويتمدد ليحتل الشاشة بأكملها ثم يضيء بومضات متتابعة وينفجر. أبتسم ثم أنظر إلى إليوت عاجزة عن الكلام، نستمر على ذلك الحال لعدة لحظات قبل أن أهمس قائلة:

- إلى متى سوف تستمر هذه المباراة؟

يبتسم هو ابتسامته القاتلة تلك قبل يقبل جبهتي ثم يلصق جبهته بها هامسًا:

- ومن قال أنني أريدها أن تنتهي؟

●●●

الفصل الحادي عشر

في الثالثة صباحًا أستيقظ شاعرة بعطش شديد، في تثاقل أنهض مغادرة فراشي، أخرج من الغرفة وعلى الضوء الخافت المنبعث من الصالة اتجه للمطبخ نصف نائمة كزومبي تم احيائه للتو، من الصنبور أملأ كوبًا كبيرًا من الماء أتجرعه بنهم شديد وكأنني لم أشرب منذ مئة عام، وقبل أن انتهي منه يتهادى إلى مسامعي خليط من الأصوات الغريبة الآتية من غرفة مكتب أبي، تتيقظ حواسي دفعة واحدة فأضع الكوب جانبًا في هدوء وبخطوات حذرة اتجه نحو الغرفة فتتضح الأصوات أكثر. على عتبة الباب المغلق أقف ناظرة إلى الضوء المتسرب أسفله محاولة الإنصات إلى تلك الأصوات، الفصل بينها وتمييزها.

صوت أغنية ما أعتقد إنها I Can't Make You Love Me – St. Vincent

يخالطه بين الحين والآخر صوت بكاء أبي المشوب بشهقات مكتومة. مع كل شهقة أسمعها ينكسر جزء من قلبي، يقع هنا أسفل تلك العتبة، يتفتت، إلى شظايا يتحول. وبلا إرادة مني تفلت الدموع من عينيّ مبللة خديّ، أضع يدي فوق فمي

كاتمة شهقة كادت أن تغادر صدري لتفضحني. أغمض عينيّ مستندة بجبهتي إلى الباب، أضع كلتا يديّ عليه برفق وكأنني أحاول احتضان أبي من خلاله، وكأنني أحاول اسكاته، تهدئته وطمأنته. عاجزة أنا عن فعل ذلك، فلا أريد كسر كبرياءه، أريده أن يظل محتفظًا بشموخه وقوته في عينيّ، لا أريده أن يعرف أنني قمت بتعرية ضعفه أمامي وقلة حيلته. لا أريده أن يعرف أنه مازال يفتقدها، أمي.

●●●

أعود إلى غرفتي بعد قليل وأقرر أن أظل مستيقظة حتى الصباح، فاليوم هو الأحد وهو ما يعني أنه لا مدرسة اليوم، ولا عمل لأبي أيضًا، أي أجازة لكلينا. وهو ما يجعل اليوم مناسبًا جدًا لقضاء اليوم سويًا وهو الشيء الذي لم نفعله منذ مدة طويلة.

بعد نصف ساعة تقريبًا أستمع إلى خطوات أبي الذي غادر غرفة مكتبه متجهًا إلى غرفة نومه فأقرر الانتظار قليلاً قبل أن أتسلل إلى غرفة مكتبه واستكمال قراءة مذكراته مجددًا، الشعور بالذنب يقتلني لانشغالي عن ذلك باليومين الماضيين، يضحك صوت ما في داخلي، حسنًا أعرف أن قراءة تلك المذكرات ليست بالشيء الصائب فهي تعتبر نوعًا من أنواع التجسس أو اختراق الخصوصية، ولكنني فقط أود أن أكون على دراية بما يسبب له

ذلك الألم الساحق، إلى جانب معرفة السر وراء مجيئنا هنا، أمي، كل شيء.

على مكتبه أجلس، أخرج دفتر مذكراته واستكمل القراءة:

«لقد حلق قريبًا جدًا من الشمس» ..

جملة تناسب جدًا ما فعلته أنا حينما أحببتكِ، تعلقت بكِ وتزوجتكِ. لقد حلقت قريبًا جدًا من الشمس، تمامًا كما فعل أيكاروس. إيكاروس الذي صنع له والده جناحان من الشمع كي يحلق بهما هربًا من محبسه محذرًا إياه ألا يحلق عاليًا كي لا تذيب الشمس أجنحته ولكنه للأسف ضرب بنصائح والده عرض الحائط وحلق عاليًا حتى اقترب جدًا من الشمس التي أذابت أجنحته فهوى من علٍ. أراد أن يتشبه بالآلهة كما أردت أنا أن أتشبه بغيري ممن يعيشون قصص حب أسطورية يحسدهم الآخرون عليها. كذلك كان حالي، اقتربت كثيرًا من السعادة وأنا أحلق إلى هناك متناسيًا أنني لست بإله وإنما شخص ضعيف تحمله أجنحة واهنة من الشمع أذابتها شمسك لأسقط في النهاية وأنسحق تمامًا.

المضحك في الأمر أنني برغم كل شيء لست بنادم على كل ذلك، فلو أننا عشنا مئات المرات، لاخترت أن أعيش في كل مرة

بجانبك برغم كل ما فعلته بي. لاخترت أن أحلق قريبًا جدًا منكِ، أن أحترق، أن تذوب أجنحتي ألف ألف مرة، وأسقط وانسحق واتفتت ألف ألف مرة.

في فيلم لالا لاند الشهير تقف ميا بطلة الفيلم باكية لتغني عن عمتها التي كانت تعيش في باريس والتي حكت لها أنها قفزت في النهر مرة واحدة حافية القدمين، تكمل ميا القصة قائلة: قفزَت من دون أن تنظر، سقطت بعنف في نهر السين، كانت المياة متجمدة، ظلت تعطس لشهر كامل، لكنها قالت أنها يمكن أن تفعل ذلك مرة أخرى. أن تقفز في نهر السين المتجمد، أي أن تحلم بشيء ما تعرف أنه سيسحقها لاحقًا، كأن تقع في الحب مثلاً وتتعرض لكل تلك المتاعب مرة أخرى. و كذلك أنا، لو خيروني أن أقع في نهرك المتجمد مرات ومرات لوافقت من دون تردد وعن طيب خاطر.

ولماذا أقول لو؟ أوليس هذا ما حدث؟ ألم أسقط معك ألفًا من المرات بدل المرة الواحدة؟

أولم نكن كسيارات الملاهي الطائشة، كلما حاولنا الاقتراب ولو قليلاً نصطدم ببعضنا البعض، يشتعل الشرر لنبتعد مجددًا؟ كانت علاقتنا دائماً ما تشبه لعبة السلم والثعبان، نرمي النرد ونصعد الدرجات ونرتقي السلالم، نقترب كثيرًا من الكمال،

حتى تحدث مشكلة ما، يلدغنا ثعبان ما فننحدر، ننحط إلى أدنى المستويات، إلى قاع القاع، ربما إلى ما قبل بداية علاقتنا بكثير! ربما كنا كالزيت على الماء، لم يكن مقدرًا لنا أبدًا ان نختلط معًا.

مع كل مشكلة كانت تحدث لنا كنتِ تعللين ذلك بأنني لست بآدم و لستِ أنتِ بحواء، ولا يحيا كلانا في الجنة. بعض المشاكل ضرورية من أجل استمرار الحياة بشكل طبيعي.

أتذكر جيدًا ذلك اليوم حينما اقنعتني أن أتناول شطيرتي حارة بدلاً من العادية معللة ذلك بأنني سوف أستمتع بها بشكل أكبر هكذا.. وقد فعلت! كنت بالفعل مستمتعًا بمذاق الشطيرة رغم الألم الذي أصاب معدتي بعدها لساعات وساعات. تعلمت منكِ وقتها أن بعض الأشياء في الحياة يكون مذاقها أجمل كثيرًا اذا تم خلطها بالوجع، مثلكِ تمامًا. فقد كنتِ كالحلوى المحشوة بالشفرات الحادة وكنت أنا مع ذلك التهمك كطفل جائع بلا هوادة، أملأني بك حتى تدمى روحي وتتشقق وأظل أطلب المزيد و المزيد. و دائمًا ما أقول لنفسي لعل عذرها الوحيد هو أنها لم تدرك يومًا ما أن الأشياء الصغيرة التي اعتادت أن تفعلها بي كانت تظلم مساحات شاسعة بداخلي. فما بالك بالأشياء الكبيرة ؟

أن تقطف وروداً كي تذبل في يد من لا يستحق فتلك خطيئة كبرى تقترفها في حق نفسك والوردِ. ومع ذلك ظللت أقطف الورود كل يوم كي تذبل في يديك و تذهب سُدىً.

حينما نقع في الحب ونجد كل شيء يسير بطريقة سلسة بل أكثر من رائعة نشعر لحظتها أننا نكاد نجن من فرط السعادة. كل تلك الدعوات المصوبة عمداً إلى السماء تم اجابتها أخيراً، تلك الخطابات الشفهية التي ظللنا نرسلها ليلاً مختومة بدموع أعيننا التي طالما بللت وسائدنا ونحن نأمل أن تصل تلك الخطابات إلى غايتها، نعرف الآن إنها قد وصلت ويتم منحنا ما بها من رغبات وأحلام وأمنيات. نحيا في ذلك العالم الوردي دون هم أو قلق حتى يتم وضع اللبنة الأولى للخلاف بيننا وبين من نحب ويبدأ ذلك العالم في الاضطراب، تحدث الشقوق. المشكلة الأولى، الصدام الأول، الكذبة الأولى، السبة الأولى، الخصام الأول.

بعدها يبدأ كل شيء في الانهيار ثم.. ثم ينتهي كل شيء. ومهما أخبرنا أنفسنا بأن كل شيء سوف يكون على ما يرام، مهما حاولنا إصلاح تلك الاضطرابات أو ترميم تلك الشقوق لا يعود أبداً ذلك العالم ورديًا كما كان، يبدأ السواد في التسرب إليه حتى يطغى كليًا عليه. وكذلك يطغى على قلب من نحب شيئًا فشيئًا ثم يحدث ما كنا نخشاه دومًا، ومهما حاولنا تفادي

ما هو قادم فلن ننجح أبدًا في مسعانا فلا يمكن لأحد أن يجبر أحدهم على حبه، أو على الاستمرار في حبه، فبمجرد أن يخبت ذلك الفتيل في قلبه، لا سبيل لإشعاله مرة أخرى. نعرف ذلك من بعض الإشارات التي تتزايد شيئًا شيئًا مع الوقت. تلك الإشارات التي تشي بأن هناك شيء ما قد تغير، قد تبدل. النظرات التائهة، الابتسامات الباهتة، اللمسات الباردة، الكلمات الجافة، الأحاديث القصيرة والردود المختصرة. كلها أشياء تنبئنا بأن القصة على وشك الانتهاء، وأن من نحب على وشك أن يصبح غريبًا كما التقيناه أول مرة. أشياء تخبرنا بأننا لم نعد نزلاء في قلبه بعد الآن، وربما يكون هناك من استولى على كل شيء كنا نملكه هناك يومًا ما.

في النهاية يعرف العاشق أنه لم يعد مرغوبًا به في ذلك المكان، يتم إلقاء حاجياته ومتعلقاته الخاصة من النوافذ، يلملمها كالطريد وهو يشاهد أقفال قلب معشوقه تغلق أمام عينيه. وهنا يسقط شيئًا فشيئًا مقتربًا من الأرض، يشاهد أجنحته تذوب وهو يبتعد عن كل شيء كان يملكه يومًا ما. يتساءل بينه وبين نفسه عن الخطأ الذي اقترفه كي يحدث كل ذلك، كي يخسر كل شيء، حتى تأتيه الإجابة أخيرًا فتذبحه، تجعله تتمنى جهله الدائم بالحقيقة.

نعم أتمنى أن أسترد ذلك اليوم من الزمن، وأظل جاهلاً بحقيقة ما حدث، بالطبع تعرفين يا حياة أي يوم أقصد بالضبط..ذلك اليوم بالمقهى.."

يقاطعني صوت جلبة من خارج الغرفة فأتوقف عن القراءة وأعيد الدفتر إلى موضعه بسرعة، أنهض من المقعد متجهة نحو الباب في نفس اللحظة التي ينفتح بها.

●●●

الفصل الثاني عشر

في اللحظة التي يفتح فيها أبي الباب أكون قد اختبئت بركن الغرفة خلف الباب، إلى داخل الغرفة يخطو خطوتين، يمسك بالباب ليغلقه حينما يرن هاتف المنزل بالصالة فتفلت يده الباب ليعود أدراجه ثانيًا إلى الصالة، أنتهز الفرصة وأخرج من مخبئي، القي نظرة إلى الصالة فأجده يتحدث إلى أحدهم بالهاتف موليًا ظهره إلى باب الغرفة فأتسلل بخطوات حذرة حتى أعود إلى غرفتي، وعلى فراشي أتهاوى غير مصدقة أنني أفلت من نفس المأزق للمرة الثانية على التوالي. أتفقد الساعة بهاتفي، إنها السابعة والنصف تقريبًا، لا يجب إضاعة المزيد من الوقت، أقفز مغادرة الفراش وفي خطوتين فقط أغادر الغرفة، وبالمطبخ أجد أبي يصنع قهوته الصباحية فأجلس إلى الطاولة قائلة:

- صباح الخير.

- صباح النور.

ألملم خصلات شعري ثم أحيلها إلى دائرة تشبه كعكة السينابون وأثبتها بدبوس خشبي رفيع، يشاهدني أبي وأنا

أفعل ذلك وأشعر أن شيئًا ما يهتز بداخله، للحظات ألمح شبح ابتسامة تظهر على وجهه قبل أن تختفي ويشيح بوجهه نحو ماكينة صنع القهوة. أنهض مقتربة منه ثم أقفز على الرف الرخامي بجانبه قائلة:

- كنت أفكر بما أن اليوم أجازة كما تعرف.

يصدر همهمات مبهمة دون أن ينظر إليّ فأكمل:

- فلما لا نقضيه سويًا؟

ينظر لي متشككًا ثم يصب قهوته قائلاً:

- لا مانع لديّ، لن أغادر المنزل اليوم، يمكننا أن نطلب بيتزا ونشاهد فيلمًا أو يمكننا...

واضعة يدي على خده أدير وجهه ناحيتي قائلة:

- لن نقضيه بالبيت، سنخرج، سويًا، أنت وأنا.

أقولها بطريقة متقطعة وكأنني أخاطب طفلاً صغيرًا أتأكد من استيعابه ما أقول.

يدير عينيه في أنحاء وجهي متسائلاً:

- إلى أين سنذهب؟

أقفز إلى الأرض ثم أقرص كلا خديه بيديّ قائلة:

- أترك هذا الأمر لي، فقط ارتدي شيئًا لطيفًا واستعد، سنغادر في خلال نصف ساعة.

●●●

بعد عشرين دقيقة أكون قد أخذت دشًا باردًا، ارتديت تشيرتًا واسعًا قصير الأكمام، سروالاً قصيرًا وعقصت معطفًا قطنيًا خفيفًا حول خصري. وفوق شعري ارتديت نظاراتي الشمسية بعد أن قمت بتثبيته على شكل كعكة سينابون ولكن أكثر ثباتًا هذه المرة. أعتقد أنني أبدو كسائحة قادمة من أوروبا. ألتقط حقيبة ظهري من على الفراش بعد أن وضعت بها بعض المتعلقات. أخرج إلى الصالة حيث أجد أبي ينتظرني واقفًا بجانب باب المنزل وما أن يشاهدني حتى يرتفع حاجباه في دهشة ويبتسم وتدوم ابتسامته لعدة ثوان هذه المرة قبل أن يفتح الباب و يشير لي بالخروج.

●●●

نتجه إلى المترو كي نستطيع الذهاب إلى وجهتنا المقصودة، نستقله ثم نصل بعد ساعة ونصف تقريبًا إلى بروكلين، تحديدًا إلى «كوني ايلاند»، أو كما يطلق عليها البعض جنة الفقراء. وهي

تعتبر متنزه ضخم يضم عدداً من المحلات والمتاجر، المطاعم، المقاهي والاستراحات، سيرك ومدينة ملاهٍ، ممشى طويل بطول الشاطيء وعدداً من الأشياء الأخرى التي لا حصر لها. إلى هنا يأتي الآلاف من الزائرين و السياح من كافة بقاع الأرض كل يوم، وأعتقد أنه مناسب جداً لقضاء وقت ممتع مع أبي.

أمام مدخل المتنزه يتوقف واضعًا يديه حول خصره، يدير عينيه في أنحاء المكان قبل أن يهز رأسه قائلاً:

- لم آت إلى هنا منذ أن أتيت بصحبة..

وكأنه انتبه فجأة لما كان على وشك قوله فيصحح جملته قائلاً:

- لم آتٍ إلى هنا منذ مدة طويلة.

- تقصد لم تأتٍ إلى هنا منذ أن أتيت بصحبتها.

يسدد إليّ نظرة حادة أصمت على إثرها، يكمل المسير مشيرًا لي أن أتبعه فأفعل.

وبعد أن يستمر الصمت المتبادل بيننا لعدة دقائق يقرر هو أن يقطعه هو فجأة قائلاً:

- نعم بصحبتها، جئنا إلى هنا أنا وهي قبل أن تولدي، قبل حتى أن نتزوج أنا وهي، زرنا الكثير من البلدان

والأماكن، أمريكا، أوروبا، آسيا، وحتى بعض الأدغال في أفريقيا.

أسير بجانبه ناظرة إليه في فضول ثم أجيبه متسائلة والفضول يكاد يقتلني:

- حقًا؟

أعتقد إنها محاولة فاشلة لحثه على قول المزيد مما يخبئه من أسرار ولكنه يستمر في الحديث عنها بالفعل:

- نعم، بالمناسبة.. تشبهينها إلى حد كبير، خاصة بتلك الملابس.

وقبل أن أقول أي شيء يكمل هو:

- يذكرني ما ترتدينه بأول رحلة قمنا بها سويًا أنا وهي.

يبتسم ناظرًا إلى شيء وهمي بالمدى أمامنا وكأنه يعيد تشغيل مشهد ما في عقله، ثم يسرع الخطى فجأة قائلاً:

- هيا بنا نبحث عن شيء ما نأكله، فأنا لم أتناول شيئًا منذ ليلة البارحة.

سائرين على المشى الخشبي المطل على شاطئ المحيط نمر بعدد من متاجر الهدايا، الملابس، متعلقات السباحة،

الاكسسوارات والأقنعة والألعاب النارية حتى نصل إلى المطاعم والمقاهي، تستقبلنا روائح الأطعمة المختلفة من غزل البنات، البيتزا، النقانق، البرجر، البطاطا المقلية والمخبوزات. عند أحد المحلات نتوقف ونبتاع بعض الشطائر الساخنة، صفيحتا مياه غازية وبضعة زجاجات مياه معدنية صغيرة.

على أحد المقاعد الخشبية المتراصة بطول الممشى نجلس لتناول ما ابتعناه. محدقًا في شاطئ المحيط أمامنا يمضغ أبي ما يقضمه بطريقة أوتوماتيكة وكأنه يعمل على وضع التحكم الآلي، لا يآبه للمارة والزحام، صراخ الأطفال وضحكاتهم، نداءات الباعة، أصوات النوارس التي تحلق فوق المتنزه.

- هل تفتقدها؟

يخرج السؤال مني بطريقة تجعله يتوقف فجأة عن المضغ، وأشعر أن كل شيء بداخله يتوقف للحظة عن العمل، يعود كل شيء بعدها لطبيعته ويعود هو لمضغ ما تناوله قائلاً دون أن ينظر إليّ:

- كنت أظن أننا جئنا اليوم من أجل التنزه وليس من أجل الحديث عنها.

أضع الشطيرة التي كنت أتناولها جانبًا قائلة بعصبية:

- أنا فقط أحاول أن..

يقاطعني:

- حاولي ألا تفسدي ذلك اليوم الجميل.

يقولها ثم ينظر لي مبتسمًا:

- أرجوكِ.

أستل نفسًا عميقًا ثم أبتسم أنا الأخرى قائلة:

- حسنًا.

نتناول بعدها ما تبقى من شطائر ونحن نتبادل بعض التعليقات القصيرة على المارة أو المحلات التجارية التي تتراص خلفنا.

●●●

بعد قليل نكون قد انتهينا من تناول الطعام فينظر لي متسائلً:

- و ماذا الآن؟

- سنحظى ببعض المرح!

- أشعر بالقلق حيال تلك الكلمة، المرح.

- لا تقلق، تعال.

أقبض على يده بقوة كي ينهض من المقعد قبل أن أجذبه لنبدأ في الركض سويًا دون أن أعلمه بوجهتنا التالية.

- حلم!

ينتبه إلى ما قاله ثم يهمس مصححًا:

- تاليا! إلى أين تأخذينني.

- شششششش.

- تاليا تمهلي، قلبي سينفجر، أنا كبير جدًا على كل ذلك.

- ها قد وصلنا.

أتوقف فيترك يدي مستندًا بكلتا يديه إلى ركبتيه وهو يلهث في قوة، أعتقد أنني كدت أن أقتله بالفعل. يتوقف أخيرًا عن اللهاث ناظرًا حوله قبل أن يرفع حاجبيه غاضبًا:

- ملاهي؟ هل جننتِ؟

- لم يبدأ الجنون بعد! انتظر هنا.

أقولها ثم أتجه نحو شباك التذاكر وبعد الانتظار عشرين دقيقة أبتاع تذكرتين أخيرًا لإحدى الألعاب ثم أعود إليه.

- هيا بنا.

- أية لعبة اخترتِ؟

- لا أسئلة ودعنا نستمتع بذلك اليوم الجميل، أليس هذا ما كنت تريد؟

يضيق عينيه ناظرًا إليّ ثم يسير أمامي. ألف ذراعي حول ذراعه ونسير حتى نصل إلى اللعبة التي اخترتها، الأفعوانية وهي الشهيرة هناك باسم Coney Island Cyclone ، وقبل أن نستقل إحدى العربات يهز رأسه قائلاً في عدم تصديق:

- لابد أنكِ جننتِ، حتمًا جننتِ!

أقترب منه هامسة:

- لم أخالك جبانًا قط.

يزم شفتيه في مزيد من الغضب ثم يستقل العربة ويغلق متراسها في حنق، أستقل المقعد المجاور له وأنا أبتسم، و من حقيبة ظهري أخرج الكاميرا ثم أغلق متراس العربة الخاص بي، لتنطلق بعدها الأفعوانية وتبدأ معها رحلتنا الجنونية.

ننطلق وسط الكثير من الصيحات، الصرخات والضحكات الآتية من أفواه ركاب الرحلة، للحظات أشاركهم الصرخات

والضحكات أنا ايضًا ثم أشعر فجأة بأن الزمن يتباطأ وأتأمل كل شيء حولي، شاطيء المحيط أسفلنا يبدو كبحيرة زرقاء صغيرة تلامس الرمال الصفراء، آلاف الأشخاص يبدون كنقاط متناهية الصغر تتحرك في كل مكان. وإلى جانبي يجلس أبي مغمض العينين محاولاً السيطرة على رعبه، أبتسم ثم أمسك بيده فيفتح عينيه تدريجياً ناظرًا إليّ، يرتجف فينقل إلى جسدي موجات تجعل جسدي يرتجف هو الآخر، أضغط على أصابعه برفق مطمئنة إياه فيتوقف جسده عن الارتجاف وهو يبادلني الابتسام.

●●●

تصل أخيرًا الأفعوانية لنهاية الرحلة بعد كثير من الصراخ والسباب والشتائم واللعنات التي يصبها أبي على اللعبة وعليّ أنا شخصيًا وانبهرت حقًا من سيطرته على لسانه وقدرته الفائقة على فعل كل ذلك باللغة الإنجليزية دون أن تفلت منه كلمة عربية واحدة.

نغادر اللعبة وهو مازال يلعن ويسب كل شيء فيما أنا أحاول على السيطرة على الضحكات الهستيرية التي ظلت تخرج مني بلا توقف، يدفعني هو برفق بين الضحكة والأخرى حتى نصل إلى أحد المقاعد الخشبية لنجلس إليها.

أقبل جبهته قبل أن أخرج الكاميرا مجددًا لأريه ما التقطته من صور لنا في تلك الرحلة، صور كثيرة لصراخه، شتائمه، غضبه، خوفه، وجهه، فمه وشعره الذي عبث به الهواء، أما أنا فكل الصور سواء بالنسبة لي، ضحكات هستيرية فقط.

كان غاضبًا للغاية وهو يشاهد الصور حتى وصلت إلى أخر صورة فارتسمت ابتسامة صغيرة على وجهه ثم اتسعت تدريجيًا حتى تحولت إلى ضحكة هستيرية وتعالت بعدها الضحكات المتبادلة بيننا.

●●●

أمام إحدى الألعاب الأخرى نتوقف وأقرر تجربتها متجاهلة اعتراضات أبي، اسم اللعبة Ring Toss أو رمي الحلقة وهي عبارة عن محاولة إلقاء عدد من الحلقات البلاستيكية حول عنق أية زجاجة من عشرات الزجاجات المتراصة جنبًا إلى جنب وإذا نجحت في فعل ذلك أربح حيوانًا قطني محشو من اختياري.

يضيق أبي عينيه ناظرًا إلى الحيوانات المحشوة المعلقة بسقف المحل، يستل نفسًا عميقًا ثم يهمس قائلاً:

- هل تعتقدين أنه بإمكانك الفوز بإحداها؟

- هل نسيت أنني لاعبة كرة سلة محترفة؟

يهز كتفيه دون أن يقول شيئًا ثم يقف جانبًا ليترك لي مساحة كافية كي أبدأ في رمي الحلقات البلاستيكية. الحلقة الأولى تصطدم بعنق إحدى الزجاجات ثم تسقط أرضًا، أتأفف ثم أحاول مجددًا، الحلقة الثانية تحتك بعنق زجاجة أخرى قبل أن تسقط أرضًا هي الأخرى، الحلقة الثالثة تحلق فوق رؤوس الزجاجات دون أن تلمس إحداها، أنفث في ضيق، أعود إلى الوراء خطوة، أستل نفسًا عميقًا ثم ألقي بالحلقة الرابعة فتسقط حول عنق إحدى الزجاجات، تغزل حولها عدة مرات قبل أن تسقط أرضًا هي الأخرى. استشيط غضبًا وأكاد أجن. تمتد يد أبي نحوي طالبًا الحلقة الأخيرة في صمت، أناولها له وأنا أدحرج عينيّ في استنكار.

ينظر نحو الزجاجات في ثقة ثم يلقي الحلقة نحوها بلا مبالاة لتسقط الحلقة حول عنق إحدى الزجاجات في ثبات تام وكأنها تحفظ طريقها. تتسع عيناي في انبهار حقيقة ثم أقفز محتضنة جسده وأنا أصيح مهللة، يحتضنني وهو يدور بي عدة دورات ضاحكًا، يقبل جبهتي ثم يعيدني إلى الأرض من جديد. من سقف المحل أختار إحدى الحيوانات المحشوة وهو «إيور» أحد الشخصيات الكارتونية المفضلة لديّ منذ الطفولة، ذلك الحمار اللطيف من مسلسل الرسوم المتحركة «ويني ذا بوه».

●●●

قررنا بعد ذلك تناول بعض المثلجات ونحن نسير على الرمال بمحاذاة شاطئ المحيط. وبعد السير لعشرة دقائق لم أستطع بعدها كبح الأسئلة المتفجرة بداخلي.

- لماذا تعتبر الحديث عنها من المحرمات؟

يتوقف عن السير ثم يركل كتله من الرمال المبللة بقدمه قائلاً:

- ألن تكفي عن إطلاق تلك الأسئلة اللعينة؟

أتراجع خطوتين إلى الوراء ثم أسير خطوة إلى الأمام مقتربة منه وأنا أهمس:

- لماذا لا تستطيع أن تضع نفسك مكاني ولو لبضعة ثوانٍ فقط؟

- هل تعتقدين أن ذلك الأمر هين عليّ؟ أن أحمل عبئًا بذلك الثقل لأعوام عدة بمفردي؟ هل تظنين أنني أستمتع بذلك؟

يلقي بمخروط المثلجات بعيدًا ليسقط في بقعة من الرمال تجثم بها عدد من طيور النوارس التي كانت تتغذى على شيء ما، يفزعها سقوط المخروط فتتفرق في هلع محلقة في اتجاهات

عـدة. الشـمس خلفنـا تسـتغيث كـي لا تغـرق في المحيـط مجـدداً. عجلـة السـاقية الضخمـة في نهايـة المشـى تـدور مـن جديـد والأضـواء المثبتـة بهـا تعمـل فجـأة فتشـع في السـماء وتتراقـص انعكاسـاتها علـى ميـاه المحيـط وكأنهـا تصـرف انتبـاه الجميـع عـن مشـاهدة الروتـين اليومـي لانتحـار الشـمس القسـري. أحـاول تجاهـل ذلـك المشـهد مقتربـة منـه وبرفـق أضـع يـدي علـى كتفـه هامسـة مـن جديـد:

- إذن شاركه معي، دعني أحمل عنك ذلك العبء قليلاً.
- ثقيلٌ جدًا عليكِ.
- فقط حاول.
- ستكرهينها، وستكرهيني، وستكرهين كل شيء، صدقيني.

أعتـرف أننـي بـدأت أشـعر ببعـض القلـق الآن، ولكننـي أعـرف إنهـا فرصتـي الوحيـدة لأعـرف كل شـيء منـه، ربمـا هـو شـيء لـم ولـن يكتبـه في مذكراتـه، الآن أو لـن أعـرف أبـدًا.

- أنـا مسـتعدة لأي شـيء.. سـنوات والفضـول يقتلنـي، أسـئلة عديـدة تغتـال عقلـي كل يـوم، مـا الـذي حـدث بينكمـا بالتحديـد، لمـا تمنعنـا مـن الحديـث عنهـا، كيـف ماتـت.. مـن حقـي أن أعـرف.

يدير وجهه فأدور أنا الأخرى لمواجهته صارخة:

- أخبرني!

يتردد صدى صرختي في الشاطىء بأكمله وتردد النوارس المحلقة فوقنا صرخاتها من خلفي وكأنها تستجديه هي الأخرى أن يجيبني.

ناظرًا إلى البحر بعينين متحجرتين يضرب الرمال بقدمه مرتين قبل أن ينظر إليّ والدموع تنهمر من عينيه قائلاً بصوت متحشرج:

- أمك لم تمت، لقد تركتنا ورحلت.

ينظر بعيدًا قبل أن يكمل بصوت يغالبه البكاء:

- من أجل شخصاً آخر.

قالها واستدار مغادرًا ليتركني خلفه أنا والشمس التي تختنق في الأفق، والنوارس التي تصرخ فوقي بلا نهاية.

●●●

الفصل الثالث عشر

هنـاك درجـات مختلفـة مـن الألـم، ألـم يجعلـك تبكـي، ألـم يجعلك تصـرخ، ألـم يقتلك ببطء وألـم ينهـي عليـك في الحـال، وألـم يجعلـك ترغـب بشـدة أن تخمـش أظفـارك داخـل روحـك وتقتلعهـا مـن جسـدك. وهنـاك ألـم يتخطـى كل تلـك المسـتويات مـن الآلام ويطفـو فوقهـا، ذلـك هـو ألمـي الـذي أشـعر بـه الآن.

أعتـرف أن أبـي كان لديـه كل الحـق بعـدم إخبـاري، فهنـاك بعـض الأسـرار التـي تشـبه المقابـر، لا يجـب أبـدًا نبشـها أو المسـاس بهـا.

تسـع سـنوات وأنـا أظنهـا قـد فارقتنـا واتجهـت إلـى السـماء لأكتشـف في النهايـة أنهـا مازالـت هنـا، تحيـا علـى الأرض معنـا، هاهـا أقصـد ليـس معنـا، مفضلـة أن تحيـا مـع شـخص آخـر.

تسـع سـنوات وأنـا أقـدس كل شـيء يخصهـا، تسـع سـنوات وأنـا ألصـق ذكرياتهـا داخـل جـدران عقلـي، أشـيد لهـا التماثيـل في كل ميـدان وشـارع تحتويـه مدنـي، تسـع سـنوات وأنـا أصلـي مـن أجـل إلـهٍ وهمـي، هكـذا تبـدو إذن عبـادة عجـل السـامري، بلهـاء أنـا!

جالسـة علـى الأرض بجانـب فراشـي أفكـر في كل ذلـك، يهتـز هاتفـي معلنًـا عـن قـدوم رسـالة أو اتصـال مـا، أعـرف مسـبقًا أنـه

إليوت ولكن ليس لديّ القدرة على الحديث معه الآن، ليس اليوم.

أنظر إلى المظروف الأحمر الذي يرقد على المكتب أمامي، وجدته على عتبة باب المنزل و لحسن الحظ التقطته قبل أن يلحظه أبي.

يهتز الهاتف مرة أخرى ويكاد صبري أن ينفد، أمسك به، وكما توقعت فهو إليوت من يتصل، أتجاهل اتصاله ثم أكتب له رسالة نصية فحواها «مريضة أنا اليوم، أراك غدًا بالمدرسة، آسفة»، ثم أرسلها. ألقي بالهاتف جانبًا ثم أنظر إلى ملابسي لم أبدلها منذ أن عدنا من الخارج، لوثتها دموعي الممزوجة بالماسكارا. أتجاهل كل ذلك وأقرر النوم بملابسي كما هي. فقط أمسح وجهي بمنديل رطب كي أمحو آثاء البكاء عنه، أطفيء ضوء المصباح ثم أرتمي على الفراش، القلادة المدلاة على صدري تلدغني برودتها، وأشعر أن اللدغة تسلل وجعها إلى قلبي الذي ينكمش متألمًا فأخلعها على الفور ثم ألقي بها ناحية باب الغرفة لتسقط أرضًا قبل أن تزحف لعدة إنشات قبل أن أسمعها تتوقف خارج الغرفة. أتشرنق على نفسي متخذة وضع الجنين ثم أغمض عينيّ لدقائق قبل أن يغالبني النعاس أخيرًا.

●●●

أستيقظ إثر دقات متتالية على نافذة غرفتي، بعينين نصف نائمتين ألمح طيف شخص خلفها، على الأرض يهتز هاتفي مجددًا وعلى شاشته يظهر اسم إليوت. إلى النافذة أتجه، أفتحها إلى الأعلى فأجده بالخارج يختبيء نصف وجهه السفلي خلف باقة من الورد الأحمر، يزيحها تدريجيًا فتظهر ابتسامته المعهودة. هامسًا ينطق:

- لم أستطع الانتظار حتى الغد كي أطمئن عليكِ.

أبتسم دون أن أقول شيئًا فيكمل هو قائلاً:

- هل أنتِ بخير؟

أجيبه بإيماءة من رأسي مصحوبة بابتسامة باهتة، يستمر الصمت بيننا للحظات أقطعه في النهاية قائلة:

- انتظر.

أعود إلى داخل الغرفة، ألتقط هاتفي ومن فوق أحد المقاعد ألتقط سترة قطنية ثقيلة ألبسها في سرعة ثم أعود إلى النافذة مرة أخرى، أمد يدي إليه فيلتقطها، أستند إليه ثم أقفز من النافذة إلى الحديقة بالخارج، أغلق النافذة تاركة فتحة صغيرة بالأسفل تساعدني في الدخول مرة أخرى إلى غرفتي حين أعود.

في مدخل المنزل نجلس جنبًا إلى جنبٍ، الظلام يحاول احتلال الشارع، تغتاله أضواء عمدان الإنارة المتراصة بطول الشارع، وبعض الأضواء الخافتة المنبعثة من نوافذ المنازل المتكدسة جنبًا إلى جنب. في السماء النجوم تحتفل ملتفة حول القمر الذي كاد أن يكون بدرًا ويحاول هو الآخر إرسال شيئًا من النور إلى البقعة التي نجلس بها. يناولني إليوت باقة الورود فأمسكها للحظات قبل أن أضعها جانبًا برفق.

- شكرًا.

- يبدو أنها لم تعجبكِ.

- لا بالعكس، هي لطيفة جدًا، الأمر فقط أنني.. أكره الورد.

أتلمس الورد مكملةً:

- أقصد، أكره قطف الورد.

- حقًا؟

- نعم، أكره أن يتم نزعها من منابتها، أن يتم قتلها كي تذبل وتموت في النهاية، لا أظنه أبدًا بالشيء المبهج، أن تهدي من تحب وردًا تم إعدامه منذ قليل.

تتسع عينا إليوت ويبدو مرتعبًا، يرفع يديه كمن يحاول إزاحة إحدى التهم عنه قائلاً:

- يا إلهي، أنا لم أقصد ذلك أبدًا، أنا فقط..

- أعرف أعرف، أنا فقط أفكر بطريقة غير عادية.

أتمتم دون أن أدري:

- أن تقطف وردًا كي تذبل في يد من لا يستحق فتلك خطيئة كبرى لا تغتفر تقترفها في حق نفسك والوردِ...

- ماذا؟

- لا شيء، لا شيء.

يتفحصني إليوت مضيقًا عينيه فأتذكر آثار الماسكارا التي تلوث ملابسي، أجذب طرفيّ السترة لأغلقها في محاولة متأخرة لإخفاء ذلك.

- كنتِ تبكين؟

أشيح بوجهي ثم اوميء ببطء، ألتقط حجارة صغيرة تسكن بجانب الرصيف وأحركها بين أصابعي، برفق يمسك إليوت بكتفي هامسًا:

- تاليا، ماذا حدث؟ أخبريني؟

نحو أحد عمدان الإنارة ألقي بالحجارة قائلة بصوت مهتز:

- إليوت، أفضل ألا أتحدث في الأمر.. أرجوك.

- أنا آسف، كنت فقط أحاول المساعدة.

أدرك الآن أنني للمرة الثانية في دقائق قليلة قمت بالإساءة إليه، ناظرة إليه أمسك بيده، أعتصرها برفق قائلة:

- أعذرني، أنا لست نفسي اليوم.

يعتصر يدي هو الآخر بالمقابل قائلاً:

- أتفهم الأمر.

أحاول إدارة دفة الحديث فأسأله:

- حدثني عن عائلتك، والدك، والدتك، هل لديك أشقاء؟

ينظر إلى السماء للحظات محاولاً معالجة ذلك السؤال في عقله قبل أن يجيب:

- يعمل والدي كمهندس مدني، وتعمل والدتي كمحامية، لديّ شقيقة واحدة «أرابيللا» وهي تصغرني بعامين.

أندهش من الاسم:

- أرابيللا؟

- نعم، أسمتها أمي بذلك الاسم تيمنًا باسم أول محامية بالولايات المتحدة الأمريكية، «أرابيللا مانسفيلد».

- يبدو أن والدتك تعشق المحاماة.

- لا يمكنك تخيل ذلك.

- وأيهما أقرب إليك؟ والدك أم والدتك؟

- كلاهما، الأمر أشبه بالمناوبة، يتولى والدي أمر المنزل لبضعة أيام وحينما لا يكون باستطاعته ذلك تتولى أمي المناوبة بدلاً منه، يحدث الأمر بشكل تلقائي ومن دون اتفاق مسبق، أعتبر نفسي محظوظًا لأنني أحظى بالاهتمام من جانبيهما وكذلك تفعل أرابيللا.

- أنا سعيدة من أجلك.

استل نفسًا عميقًا قبل أن أكمل:

- إلى أين كنت ستصطحبني اليوم؟

- ألم تفتحي المظروف؟

- لا.. آسفة.

أقولها والخزي يغلفني فيسارع إليوت قائلاً:

- لا عليكِ، كنت سأصطحبك إلى..

أقاطعة قائلة:

- لا تخبرني، انتظر، قل لي أولاً كيف جئت إلى هنا؟

- بالسيارة، سيارتي.

يقولها مشيرًا إلى سيارة تركن قريبًا من موضعنا، فورد موستانج سوداء ذات غطاء قابل للطي. ناظرة إلى السيارة أسأله:

- لما لا نذهب الآن.

- الآن؟!

- نعم، لما لا؟ هل هناك ما يمنع؟ أعني هل لم يعد المكان متاحًا؟ هل تأخر الوقت؟

بنظرات تائهة يجيبني ثم يبتسم أخيرًا وهو ينهض، يمد لي يده فألتقطها وأنهض أنا الأخرى، ينظر لي قائلاً:

- بالعكس، الوقت مناسب جدًا، في الواقع هو أنسب من الميعاد الأصلي الذي كنا سنذهب خلاله.

بيدين متشابكتين نتجه سويًا إلى السيارة، يعطل جهاز إنذارها ثم نستقلها ونمضي.

في شوارع مانهاتن التي مازالت تعج بالمارة، أغلبهم سائحون يهيمون في كل شبر منها كالمجاذيب، نمضي بالسيارة. أطلب

من إليوت أن يطوي السقف للخلف كي أحاول تشرب كل شيء حولي، السماء، الليل، البنايات، الإعلانات النيونية الضخمة، وجوه المارة، الضجيج، الهواء الذي يتلاعب بخصلات شعري، كل شيء. أستند بذقني وكلا ذراعي إلى النافذة بجانبي وكأنني طفلة في السادسة، يحاول إليوت كسر الصمت السائد بيننا فيقوم بتشغيل إحدى الأغنيات

Solitude – M83

من دون أن أستدير أرفع إبهام اليد اليسرى مؤكدة على جودة الأغنية قبل أن أعود إلى موضعي مرة أخرى لمشاهدة كل شيء.

تمر دقيقة قبل أن يخفض إليوت صوت الأغنية قائلاً:

- ماذا بشأنك؟

شاردة في كل شيء حولي لا أنتبه لسؤاله فيكرره قائلاً:

- تاليا، ماذا بشأنك؟

أستدير متسائلة:

- ماذا بشأني؟ ماذا تقصد؟

- أعني عائلتك، والدك، والدتك.

أعتدل في مقعدي مجيبة:

- آه، والدي يعمل كحارس أمن في إحدى البنايات، وهو الأقرب لي بالمناسبة. بنظرية المناوبات تلك فهو يتولى أمر كل المناوبات منذ أن كنت طفلة صغيرة. وليس لدي أشقاء.

يربت بأصابعه على مقود السيارة وكأنه يلعب البيانو ثم يسألني مجددًا:

- وماذا عن والدتك؟

أدير عينيّ ببطء في كل شيء حولنا، الأشجار المزينة بأضواء نيونية صغيرة، الأرصفة التي تعج بالمارة، أكشاك بيع الأطعمة السريعة، السيارات التي تزاحمنا، إشارات المرور، الإعلانات، البنايات، السماء، الليل. أغمض عينيّ محاولة منع دموع جديدة من التسرب خارجهما قبل أن أجيب على سؤال إليوت قائلة:

- رحلت، رحلت عن عالمنا منذ زمن طويل.

أقولها وأمد يدي نحو المذياع، أرفع مستوى الصوت إلى أعلى حد ثم أستند بذقني وذراعي إلى النافذة مجددًا وأنا أبتسم في هدوء.

●●●

الفصل الرابع عشر

نصل إلى وجهتنا أخيرًا، مكان ما على أطراف نيويورك، الظلام يحاوطنا من كل جانب باستثناء عامود إنارة يقف متهالكًا بمفرده ترتعش إضاءته ربما بسبب البرودة القارسة هنا.

للمرة الثانية أشعر أن إليوت يخطط لإختطافي، يغادر السيارة متجهًا إلى عدد من المباني التي تخيم بظلالها على المكان، أغادر السيارة وأتبعه أنا ايضًا.

- مكان ممتاز للقتل والاغتصاب.

كلمات أسددها له وأنا أفرك يديّ لجلب بعض الحرارة إلى جسدي الذي كاد أن يتجمد.

يضحك إليوت مكملاً جملتي:

- والاختطاف وتجارة الأعضاء أيضًا.

- جئت بي إلى هنا لنحتفل بالفالنتاين أم الهالووين؟

يضحك حتى يهتز جسده ثم يشير لي كي أتبعه حتى نصل إلى ساحة واسعة تتوسط ثلاثة مباني، بمساعدة الضوء القادم من عمود الإنارة أبدأ في اكتشاف المكان تدريجيًا، المبنى الأول

وهو أكبرهم يمثل فندق قديم آيل للسقوط، المبنى الآخر ما هو إلا استراحة ومنتجع صحي، والمبنى الثالث عبارة عن مسرح صغير وملهى ليلي.

نتوغل في الساحة التي تتوسط الثلاثة مباني حتى يتضح أمامي حمام سباحة بيضاوي يقع في مواجهة مبنى المسرح، يعلوه جسر حديدي على شكل قوس يصل إلى الناحية الأخرى المواجهة للمبنى الكبير. يخرج إليوت من جيبه كشافًا صغيرًا يضيئه ثم يتجه نحو حمام السباحة، يستقل الجسر ثم يمد يده إليّ فأمسك بها ونتجه بخطوات حذرة إلى الناحية الأخرى من حمام السباحة.

- وماذا الآن؟ ماذا سنفعل هنا في ذلك الظلام وتلك البرودة؟

أقولها وأنا أفرك ذراعيّ محاولة طرد البرد عنهما. في صمت يتجه إليوت ناحية المبنى الكبير حتى يلتهمه الظلام تمامًا، تمر عدة ثوان يتملكني بها الخوف حتى أسمع صوت طقة ما ثم..

يضيء المبنى الكبير تدريجيًا، ولكن ليس من الداخل، من الخارج، يلتف الضوء حوله كثعبان أبيض مضيء، يأخذ

منـي الأمـر لحظـات حتـى أسـتوعب ماهيـة ذلـك الثعبـان، عـدد مـن أسـلاك الضـوء الموصولـة بمصابيـح بيضـاء صغيـرة. يضـيء ذلـك الثعبـان حتـى يصـل إلـى الأرض متجهًـا ناحيتـي عابـرًا حمـام السـباحة و منـه إلـى مبنـى المسـرح ليلتـف حولـه ثـم يتجـه إلـى المبنـى الثالـث ليضيئـه هـو الأخـر و ينتهـي عنـد ذلـك الحـد. يعـود إليـوت مبتسـمًا، يطفـيء كشـافه مشـيرًا إلـى المبانـي حولنـا قائـلاً:

- هذا بشأن الظلام، أما بشأن البرودة.

يخـرج علبـة ثقـاب مـن جيبـه ثـم يتجـه إلـى قدر فخـاري بجانبي يحتوى علـى عـدة ألـواح خشـبية صغيـرة، يشـعل بهـا النـار ثـم يتجـه إلـى عـدد مـن القـدور الأخـرى التـي تحاصرنـا والتـي لـم ألحظهـا إلا الآن فقـط.

- والآن يجب أن تستريحي قليلاً ريثما أعد لكِ العشاء.

يقولهـا ثـم يتجـه إل يمينـي حيـث أرى سـارية حديديـة، يتدلـى بجانبهـا حبـل سـميك يجذبـه فينفتـح شـيء مـا خلفـي، أسـتدير لأعـرف مـا هـو فتقـع عينـاي علـى فـراش قماشـي معلـق بـين تلـك السـارية الحديديـة علـى يمينـي و أخـرى تماثلهـا علـى يسـاري. فـراش علـى شـكل أرجوجـة أو مـا يعـرف بالأرجوحـة الشـبكية Hammock.

يحملني ثم يتجه بي نحوها، وبرفق يساعدني حتى يستقر جسدي بها. حقيبة مهملة على الأرض يفتحها ثم يخرج منها غطاء ثقيل يدثرني به جيدًا، يعبث بشعري ثم يتركني مبتسمًا.

يتجه إلى شيء ما يختفي تحت غطاء مضاد للمطر، يزيحه فينكشف جهاز كهربائي يعبث بعدة أزرار به فتلعب أغنية ما.

Wilderness – Jon Bryant

ثم يتجه إلى الناحية المقابلة حيث تقبع شواية تعمل بالفحم، يشعل بها النار، ثم يبدأ في إخراج قطع من اللحم من ثلاجة صغيرة محمولة بجانب الشواية. ينتهي أخيرًا من إعداد الطعام ثم يأتي ناحيتي حاملاً طبقين لكلينا. أنظر لكل شيء حولنا، إلى تلك الجنة الليلية التي خلقت من لا شيء ثم أثبت عينيّ في عينيه قائلة:

- الخرائب تستحيل بين يديك جنانًا.
- فقط لأنك معي.
- كيف تأتي بتلك الأفكار؟
- طفلة ذات أربعة عشر ربيعًا ذات ضفائر مجدولة أشعر أنها تنمو بداخلي، صارت تتحكم في كل شيء

فيّ، تتحدث وتتحرك وتفعل كل شيء بدلاً مني، تمارس طفولتها وتهورها بكل براءة، وكل هذا بسببكِ أنتِ.

يناولني الطبقين ثم يفرد غطاءً آخر أسفل فراشي ويجلس إليه، يتناول طبقه ثم يمسك بآداة تحكم عن بعد يوجهها ناحية المبنى الكبير الذي يواجهنا فتتحول واجهته إلى شاشة سينما عملاقة و يبدأ عرض فيلم ما، فيلم أبيض وأسود، أبتسم وتحتل ابتسامتي وجهي، أرض الساحة، المباني الثلاثة، حتى تحتل العالم بأكمله، فذلك الفيلم أعرفه تمام المعرفة و هوفيلمي المفضل كازابلانكا. أضع يدي على كتفه قائلة:

- كيف عرفت؟

- الملصق في خزانتك.

يقبل يدي ثم ينظر لي مطولاً حتى أشعر أنني أتفتت، أتحلل إلى جزئيات وذرات صغيرة، هل ذلك هو التأثير الفيزيائي للعنصر «إليوت» على العنصر تاليا؟

نعود بعيوننا إلى الفيلم حيث يخاطب هامفري بوجارت انجريد برجمان قائلاً:

«العالم كله يتهاوى ونحن نقع في الحب»

وكذلك أشعر الآن أنني أتهاوى وأقع في الحب.

●●●

الفصل الخامس عشر

بجسد لم ينم إلا ساعة فقط وطاقة لم يتعد مؤشرها الربع أصل إلى المدرسة في اليوم التالي بصحبة الإنهاك و التعب. أنجح في عبور حصص التاريخ، الفيزياء واللغة الإسبانية نصف نائمة لاتجه بعد ذلك إلى ملعب المدرسة من أجل تدريبات الفريق لكرة السلة.

بعد أن أقوم بتغيير ملابسي إلى ملابس التدريب نقوم بعدد من الإحماءات لعشرة دقائق ثم يأمرنا المدرب بمحاولة الركض نحو السلة ثم التصويب.

كورتني هي أول من يبدأ وتنجح في المهمة بشكل ممتاز، تليها سكاي التي تنجح هي الأخرى في مسعاها ثم يأتي دوري أنا، أتسلم الكرة، أربتها أرضًا عدة مرات ثم أركض ناحية السلة، أقفز، أسدد الكرة ناحية السلة و..

تصطدم بحافة السلة ثم تسقط أرضًا بجانبي، يا لخيبة الأمل. من الخلف تغتالني صرخات المدرب الذي يخلط اسمي ببضعة سبات يملأ بها الملعب بأكمله.

تنتهي جميع زميلاتي من تسديد كراتهن بنجاح حتى يأتي دوري مجددًا وللمرة الثانية أتسلم الكرة، أربتها أرضًا مرة، اثنتين، ثلاث مرات ثم أركض ناحية السلة، أقفز وقبل أن أصل إلى الارتفاع المناسب أشعر بالإعياء، يظلم العالم من حولي ثم أسقط أرضًا.

●●●

أفتح عينيّ وأبدأ في استعادة معالم الدنيا من حولي، رائحة المعقم التي تزكم الأنوف، المصباح النيوني بالسقف، الملصق المثبت إلى الحائط الذي يحذر من الأمراض المنقولة جنسيًا وكيفية الوقاية منها، عدد من الوجوه القلقة التي تحاصرني، كورتني، سكاي، أوليفيا، والسيدة ريبلي الممرضة المسؤولة عن عيادة المدرسة، تقترب مني هامسة:

- كيف حالك الآن؟

- أفضل، ما الذي حدث؟

يبدأ الجميع في شرح ما حدث بكلمات غير مترابطة تتساقط أرضًا قبل أن تصل إلى أذني ولا ينجح في الوصول إليّ إلا كلمات مثل: سقوط، إغماء، صراخ.

مربتة على كتفي تبتسم السيدة ريبلي قائلة:

- يبدو عليكِ الإرهاق.
- في الحقيقة لم أنم تقريبًا منذ يومين.
- هل تمزحين؟! أنتِ تقتلين نفسك ببطء!
- سأكون بخير لا تقلقي.
- اذهبي حالاً إلى البيت، لقد منحتك إجازة لبقية اليوم، خذي قسطًا كافيًا من النوم وتناولي شيئًا يساعد جسدك على البقاء حيًا.
- ولكن...

نظرة واحدة بعينيها المتسعتين عن أخرهما تجعلني أخرس، ألتقط حقيبتي وأغادر الغرفة.

●●●

أصل إلى البيت، ألقي بحقيبتي أرضًا، وبملابس التدريب أرتمي إلى الأريكة بالصالة. مستلقية على ظهري أحملق في السقف لعدة دقائق قبل أن أنهض مرة أخرى، أتجه إلى الثلاجة، أفتحها، ألتقط عدة أطعمة ومعلبات ثم أغلقها. على عجل أقوم بإعداد شطيرة كبيرة ثم أصب لي كوبًا من عصير البرتقال،

ألتقط مفتاح مكتب أبي من مخبئه السري بالمزهرية ثم أتجه إلى غرفة المكتب. أخرج دفتره، أتناول قضمتين من الشطيرة، رشفة من الكوب ثم أبدأ في القراءة:

«أتذكر ذلك اليوم في المقهى، برد ديسمبر، صوت الأمطار المنهمرة بغزارة على زجاج النافذة جانبنا، هاتفك الذي يرن كل بضعة ثوان بكل وقاحة، نقر أصابعك على المنضدة كخيل تركض بلا توقف في موضعها، اهتزاز ساقيك أسفل الطاولة يبث إليّ زلزال الملل الذي كنتِ تشعرين به، خيانتك التي كان يفضحها هروب عينيك إلى الفراغ المظلم خارج النافذة، و تلك الأغنية التي ظلت تلعب بلا نهاية في المقهى حتى كرهتها إلى الآن، الأغنية التي طالما أحببتها.

Writing's On The Wall – Sam Smith

وعندما وصل سام للمقطع الذي يقول :

؟If I risk it all..would You break my fall

هل إذا خاطرت بكل شيء وقفزت، هل ستخففي وقعتي؟ هل ستمسكي بي؟

جميلة هي اللغة الإنجليزية، إذا ترجمنا الجملة حرفياً فإنه يقول لها هل ستكسري وقعتي؟

لا لم تكسري وقعتي، لقد خاطرت أنا بكل شيء، وقفزت مغمضاً عينيّ، واثقاً أنكِ بالأسفل، تنتظرين فاتحة ذراعيكِ لتخفيف سقوطي، لكسر وقعتي، ولكنك كسرتني أنا وأنتِ تشاهدينني عن بعد وأنا أتفتت إلى أشلاء صغيرة على الأرض.

كنتِ كالوشم المؤقت، الذي لا يتحمل المؤثرات الخارجية، ليتلاشى مع مرور الوقت. تمامًا كما فعلتِ. وتلاشيتِ مع مرور الزمن، لم تصمدي أمام مخالب الأيام، ولم يدم ذلك الإحساس في قلبك كما كنت أتصور.

جالسة أمامي أخبركِ كم أشتاقك فترديني بالمثل متبعة بتحرك عينيك يميناً، فأعرف أن شوقك كاذباً مثلك.

في النهاية لم تستطيعين المماطلة أكثر من ذلك، بعينين زجاجيتين وصوت شبه آلي تشرعين في محاولة اغتيالي، تلقين في وجهي بكلمات أشبه بالقذائف جعلت الأصوات من حولي تختفي ويحل محلها ضوضاء بيضاء، طنين ثقيل يغلف أذنيّ أحاول من خلاله استيعاب ما تقولينه في تلك اللحظة، بعض الكلمات التي اخترقت حاجز الطنين: ملل، شخص آخر، إجراءات الطلاق، هذا أفضل لكلينا. أعتقد أنكِ كنتِ تقصدين الأفضل لكِ أنتِ فقط.

وبعد أن تنجحين في محاولة اغتيالي بامتياز، تلملمين أشياءكِ المحاصرة بفوارغ الطلقات المستقرة في روحي، تقتربين مني بوجهك المحمل بالخداع حتى تهلك كل ذرات الأوكسيجين بيني وبينك وأختنق، تريدين فقط التأكد من موتي. على خدي الأيمن تضعين قبلة باردة، كقاتل محترف يضع باقة ورود ذابلة على ضريح ضحيته. القبلة مازالت تؤلم خدي إلى الآن وكأنها علامة حرق قديمة تشتعل بين الحين والآخر لتذكرني بما حدث يومها.

كلمات أخرى تلقين بها على الطاولة أمامي كبقشيش بخس وأنتِ تربتين على كتفي، يجب أن تحيا، أن تقاوم، حاول أن تبتهج!

لحظتها أشعر بالأشياء تفقد مذاقاتها تدريجيًا، الواحد تلو الآخر، تبهت ألوانها، تتلاشى شيئًا فشيئًا، يتفسخ عالمي، يتحلل. كمدينة موبوءة يهجرها البشر، الحيوانات والطيور. تتهدم مبانيها و تنطفىء أنوارها، تعربد الأشباح في شوارعها وساحاتها.

تدركين كل ذلك و تسألينني أن أحيا؟ أن أقاوم أن أبتهج؟! كيف وأنتِ أول المهاجرين من تلك المدينة؟!

تغادرين وأبقى متجمدًا في موضعي، عاجزًا عن الحركة، عاجز عن الكلام، عاجز عن الحياة، أشعر أنني أنكمش، أتضاءل، أصير بحجم حبة رمال في مواجهة العالم.

ولسذاجتي كل ما كنت أفكر فيه في تلك اللحظة هو كيف أننا لن نعد الليلة إلى البيت سويًا، سوف لن نتشاجر حول من سيصنع العشاء، وكيف أنني في الصباح لن أستيقظ إلى جانبك.

كيف أنك لن تعدين لي الشاي في ليالي الشتاء الباردة ولن أدثرك بالغطاء في الثالثة فجرًا وأنتِ تشاهدين فيلمًا عربيًا قديمًا. لن نتسوق في متجرنا المفضل في الواحدة صباحًا، نسقط البضائع أرضًا و نسبب الجلبة والضجيج في المكان و ينتهي الأمر بطردنا ككل مرة.

لن نعبر الشوارع بيدين متشابكتين كالأطفال. لن أعانقك في الصباح و لن تعانقينني حينما أغازلك فجأة وأنتِ تلعبين البيانو شبه عارية كعادتك.

لن ولن ولن.. الكثير من ال «لن» التي أخذت تملأ عقلي وتحتله، تتكاثر، تنقسم، تتشعب وتتوغل داخل خلاياه حتى صرت أرى كلمة لن كبيرة تتجسد على هيئة شخص يجلس إلى الطاولة قبالتي ترتسم على وجهه إبتسامة بغيضة تشي بحياتي المستقبلية من دونك.

ولم يكن يكذب، فكيف أصبحت أنا بعد غيابك؟ مجرد شبح يدعي الحياة حتى ينتهي أجله الحقيقي. موظف لدى

القدر يستيقظ في كل يوم، يخرج من دولابه الخاص يومًا جديدًا كي يحياه، أيام باهته يرتديها كزي موحد، يونيفورم كريه مشوه ذو لون رمادي عديم المذاق.

أصبحت بعدك كمدينة ملاهي قديمة، تشع الأضواء منها على استحياء، يمر العابرون بها فيستقلوا ألعابها، ينهكوها، يرهقوها، وقد يحيلوها خرابًا ويمضوا. تخبت أضواؤها تدريجيًا وتسكن حركتها في النهاية تمامًا. يرحلون و يتركونها وحيدة في الظلام تئن وجعًا وتنزف وحدة.

أصبحت أنزعج إذا وجدت فيلمًا يُعرض في إحدى القنوات اعتدنا أن نشاهده سويًا. أصبحت أنزعج إذا سمعت أغنيتنا المفضلة تلعب في سيارة أجرة، مقهى شاطئي، أو متجر ملابس.

أصبحت أنزعج إذا سمعت هاتفًا يرن بنغمة تشبه نغمة هاتفك. أصبحت أنزعج إذا مررت بجانب أحد محلات العطور واغتالني عطرك المفضل دون قصد. أصبحت أنزعج إذا ما ذهبت عند منزلك القديم ووجدت ضوء غرفتك مضاءً لوقت متأخر من الليل، أتتسامران وتضحكان؟ هل يغني من أجلك ويقص عليكِ حكاية قبل النوم كما كنت أفعل؟ أصبحت أنزعج إذا مرت تحت منزلنا قافلة من السيارات تجأر بأبواقها احتفالاً بعرسٍ ما، زغاريد النساء تقتلني كلما انطلقت، ينقبض قلبي مخافة أن تكوني بطلة ذلك العرس.

أصبحت أنزعج من كل شيء حتى صار العالم بأكمله شيئًا يفوق الاحتمال.

الحرائق تشتعل في قلبي كل لحظة ولا سماع لدوي سرينة المطافىء، يبدو أنني أحترق على مهل دون أن أتفحم.

أتمدد في كل ليلة على فراش الوحدة، أدعو وأصلي وأقرأ التراتيل كي تعودي، ولكن الله لا يستجيب، تَرد إليّ دعواتي كبضاعة مغشوشة لترقد فوق آلاف الدعوات الأخرى المكدسة في غرفتي تزاحم الخيبات المتضخمة والأوجاع التي تصرخ كأطفال جياع بجانبي.

وبعد مرور أشهر وأشهر وأنا منقوع في ذلك الوحل من التعاسة، الوحدة، الذل، الوجع و الخديعة، حدثت لي انتكاسة جديدة لتعود لي الذاكرة للمرة الثانية وأعود أنا لمنزلي مرة أخرى، منزل العائلة.

كان كل شيء كما هو لم يتغير، الحديقة الجرداء، الأرجوحة الكهلة، جدران المنزل القرميدية التي تملؤها الشقوق، طبقات الدهان الزرقاء التي بهتت واختبأت خلف الحشائش والنباتات التي نمت بطريقة مرعبة لتحاوط أرجاء المنزل وكأنها تحاول أن تعزله عن بقية العالم.

أحاول تجاهل صوت البحر الذي يهدر من خلفي، صراخ النوارس التي تحلق بالأعلى تحت السماء المخضبة باللون الرمادي البغيض.

أنهض متجهًا إلى الباب وبعد معركة رهيبة مع الحشائش التي تغطي الباب أفتحه وأدخل، وبمجرد أن أضع قدمي داخل المنزل أعرف أنني لست وحيدًا، أفكر بالتراجع والهروب حتى ألمحه بالداخل، يجلس على مقعد متحرك قبالة النافذة الكبيرة بالصالة، تتسرب الشمس من فتحاتها وتسقط عليه في الظلام فتمنح جسده مظهرًا شطرنجيًا مرعبًا.

من دون أن يلتفت يرفع يده المرتعشة ببطء مشيرًا لي بالذهاب إليه، أقترب منه كالمنوم مغناطيسيًا بخطىً بطيئة ثم أتوقف لا يفصل بيني وبينه إلا بضعة خطوات.

من دون أن يلتفت يضغط على زرٍ ما بالمقعد ويخرج منه صوت آلي عتيق صدىء:

- كنت أعرف أنك ستأتي.

أتجمد إثر ذلك الصوت الذي يشبه صوت الآلات، يأخذ مني الأمر عدة لحظات حتى أستوعب أنه ربما فقد صوته إثر حادثة ما مما اضطره أن يستخدم ذلك الصوت الآلي مثلما يفعل ستيفن هاوكينج. أقترب منه بحذر هامسًا:

- هل تعرفني؟ هل أعرفك؟ كيف دخلت إلى هنا؟

بصوته الآلي يتحدث مجددًا:

- دخلت من الباب الخلفي، بالطبع أعرفك، أنت عايش نزار الحداد، أما أنا.

يضغط على زر ما بالمقعد فيتحرك المقعد ليصير هو بمواجهتي، ولأول مرة منذ لقائنا أستطيع رؤية وجهه بالكامل، أو ربما عليّ القول ما تبقى منه.

ما رأيته في تلك اللحظة بعينيّ يفوق أكثر أفلام الرعب بشاعة وقبحًا. خلال أشعة الشمس المتسربة من بين فتحات النافذة أشاهد جمجمة آدمية عديمة الشعر، عديمة الجلد إلا من أجزاء بسيطة، فقط لحم أسود منسلخ، عين مفقوءة مجوفة كبئر سحيقة وعين أخرى مشوهة شبه مغلقة، لا أذنان، لا شفاه، الجزء الخارجي من جلد الفك الأيمن متآكل تمامًا مما يجعل عظام وأسنان ذلك الجزء يظهر بشكل واضح وكريه.

أتجمد في موضعي للحظات قبل أن يتحرك شيء ما بوجهه، تتحرك بضعة عضلات مشوهة به فيبدو لي أنه يبتسم تقريبًا، ثم يخرج منه ذلك الصوت مرة أخرى:

- "أعرفك بنفسي، أنا جدك، شمس الجبالي."

●●●

الفصل السادس عشر

ينفتح باب الغرفة وقبل أن أستوعب ما يحدث أرفع عينيّ المثقلتين بالدموع ناحية الباب لأجد أبي يقف على عتبته والغضب يشيد قلاعًا فوق ملامحه. يسقط الدفتر من يدي إثر الصدمة، أقف مبتعدة عن المكتب وكأنني أتهرب من التهمة الملصقة بي.

يدلف هو إلى الغرفة بخطىّ بطيئة قائلاً:

- إلى أين وصلتِ داخل الدفتر؟

يمسك بالدفتر المفتوح الملقى أرضًا تحت قدميّ، يعيد غلقه ويضعه على سطح المكتب، بحروف متلعثمة أجيبه:

- شمس الجبالي.

يوميء برأسه قبل أن تلين ملامحه قليلاً ويجلس إلى المقعد المواجه للمكتب مشيرًا لي بالجلوس إلى أحد المقاعد في الجهة الأخرى من المكتب.

جالسًا أمامي بملامح جامدة وكأنه تمثال رخامي قد نُحت لتوه ظل صامتًا لدقائق عدة حتى ظننته قد نسي الكلام، ثم فجأة وبدون سابق إنذار تكلم، بعينين مثبتتين على اللاشيء:

- حينما أخبرني بأنه جدي، هوت عليّ تلك الجملة كالصاعقة، وكدت أن أتهاوى في موضعي. كنت أعرف أنني انقطعت من أية صلة قرابة تربطني بأي شخص في هذا العالم، فمن أين أتى ذلك الجد المزعوم؟

يبدو أنه أحس لحظتها بالصراعات التي تدور بداخلي فأشار لي بالجلوس، وإلى أريكة قديمة مهترئة قبالته جلست، تهاويت على أصح تعبير. وقبل أن أستوعب ما يحدث استطرد بصوته الآلي قائلاً:

- أبحث عنك، أبحث عنك منذ زمن طويل، لكن يبدو أن جدتك أخفتك عني بشكل جيد. وبعد أن يأست من العثور عليك سافرت في رحلة علاجية استمرت عدة سنوات من أجل استعادة بعضًا من آدميتي المفقودة كما ترى، وحينما عدت علمت بأمر ذلك الكاتب الجديد الذي ذاع صيته، ظهر في العديد من القنوات، واحتل اسمه الصفحات الأولى لأشهر الصحف المصرية والعربية، عايش نزار الحداد. وحينما قررت الذهاب إليك أخبروني إنك انطلقت في جولة حول العالم أنت وعائلتك من أجل حضور عدة حفلات توقيع لروايتك الجديدة. انتظرتك عدة أشهر حتى تعود، وقبل نهاية

جولتك جاءني خبر انفصالك عن زوجتك العزيزة، وعن دخولك في نوبة اكتئاب عصيبة جعلتك لا تريد العودة إلى هنا، إلى مصر مرة أخرى. وبعد عدة أشعر علمت بنبأ قدومك أخيرًا، ولكن للمرة الثانية تختفي بعد أن قمت بتغيير محل اقامتك، لا أدري لماذا، ربما كمحاولة للهروب من ذكرياتكما التي تحتل المنزل بأكمله. ولكنني لم أيأس على أي حال، كنت آتي إلى هنا بشكل متكرر عسى أن أجدك وها أنا قد فعلت أخيرًا.

اقترب أكثر مني بمقعده مستطردًا:

- كنت أعرف أنك ستعود، دائمًا ما تفعل، يجذبك هذا المنزل كمغناطيس عملاق قوي.

ولأول مرة أجسر على الكلام قائلاً له:

- ماذا تريد مني؟

- أنا جدك، والد أمك، أريد أن يلتم شملنا مرة أخرى. أريد أن أعوضك عن كل ما فاتك، كيف هي حلم؟ أريدك أن تأخذني إليها.

شيء ما لمع للحظات في عينه الغير مشوهة، شيء وحشي، شيء أثار الرعب في نفسي، جعل كل خلية فيه تتجمد. رفع

يده التي تختفي داخل قفاز جلدي مخيف كي يلمس وجهي في نفس اللحظة التي سقط أرضاً عن ساقيه شيء ما، مددت يدي لالتقاطه في حذر حتى أمسكت به، دفتر أسود صغير ذو غلاف جلدي مهترىء، مدون عليه بحروف حمراء كالدم «روح» وقبل أن أحاول فتحه وجدته يهتف بصوته الآلي «هاته، هات الدفتر، اتركه حالاً!".

لحظتها اقتحم المنزل علينا شخص يرتدي حلة سوداء تجعله يبدو وكأنه قد خرج لتوه من أحد أفلام الجاسوسية، وما إن رآني حتى أشهر بيده اليمنى مسدسًا في وجهي متخذًا وضعًا قتالياً في تحفز، مقربًا اليد الأخرى إلى فمه متمتمًا ببضعة كلمات وكأنه يتحدث إلى ساعة يده، أو هكذا ظننت.

لا أعرف ما الذي دهاني لحظتها وجعلني أمتنع عن إعادة الدفتر إلى ذلك الرجل المقعد وفي خلال جزء من الثانية وجدتني أركض لا إراديًا متجهًا إلى الباب، و قبل أن أصل إلى الباب تأكد حدسي عن طريق الرصاصات التي انهمرت لتعبر بجانبي وتستقر إلى الحائط أمامي. يتبعها صوت الرجل المقعد وهو يهتف: «لا تدعه يفلت بالدفتر، اقتله!".

أغادر المنزل لتستمر الطلقات في الانهمار خلفي ولسوء الحظ يتلقى كتفي الأيمن رصاصة وتحظى ساقي اليسرى

بواحدة أخرى. أركض بعدها بخطوات عرجاء متحاملاً على نفسي حتى أصل إلى السيارة وأفر هاربًا بها.

أقاطع أبي قائلة:

- وماذا عن الدفتر؟ ما قصته؟ هل يخص جدتي؟

ناظرًا لي يجيب:

- نعم يخص جدتك، هو دفتر مذكراتها، أعتقد أن كتابة المذكرات شيء يسري في دماء تلك العائلة.

يبتسم ثم يمسك رأسه بكلتا يديه فأسأله في حذر:

- وهل يحوي ذلك الدفتر على معلومات خطرة ؟ أعني.. الرجل حاول قتلك حرفيًا من أجل استعادته.

يعتدل أبي في جلسته عائدًا بظهره إلى الخلف، يغمض عينيه قائلاً:

- لا أعرف إن كان من الصواب أن أخبرك بما احتواه الدفتر، فالظلمة بداخله غير محتملة.

أقاطعه:

- أبي، لقد قرأت دفترك كله تقريبًا، قرأت وجعك، ظلمتك، وحدتك، تعاستك، تشربت كل شيء بداخله وها أنذا لم يمسسني شيء، مازلت بخير.

يقاطعني هاتفاً:

- دفتر جدتك شيء آخر، مستوىً أخر من الوجع والظلمة والكآبة، الفرق بين وجعي ووجعها تمامًا كالفرق بين بركة ماء صغيرة والمحيط الهادىء.

- أبي أرجوك!

لدقائق يستمر في الصمت قبل أن يهمس أخيرًا:

- حسنًا.. سوف أفعل ما هو أفضل من إخبارك بما يحتويه الدفتر.

يصمت لهنيهة من الوقت ثم يكمل:

- سوف أعطيك إياه.

- ماذا عن سبب هروبنا إلى هنا؟ ماذا عن ...

يقاطعني في هدوء:

- سأخبرك بكل شيء بعد أن تنتهي من قراءته.. كل شيء.

●●●

الفصل السابع عشر

في السادسة مساءً يأتي إليوت لاصطحابي من أجل الموعد الرابع، أعرف أن اليوم ليس مناسبًا لموعد غرامي جديد ولكن أعتقد أنني بحاجة إلى إزاحة الكثير عن عقلي، خاصة بعد كل تلك المعلومات والأسرار التي استقبلتها في الأسبوع الأخير وهو ما يتجاوز كل قدراتي العقلية على الاستيعاب. جالسان في السيارة المتوقفة أمام منزلي، يلفنا الصمت قبل أن يقطعه إليوت قائلاً:

- اليوم سيكون مختلفًا تمامًا عن الأيام السابقة، سوف أصطحبك إلى..

اقاطعه:

- ما رأيك ألا نفعل شيئًا اليوم؟ لست في مزاج يسمح بفعل شيء ضخم.

تبهت ملامح إليوت قبل أن يقول بصوت متحشرج:

- هل.. هل تودين إلغاء اليوم؟

- لا لا، دعنا فقط لا نفعل شيئًا هامًا.

أصمت قليلاً قبل أن أعاود الحديث:

- ما رأيك أن نذهب إلى «تايمز سكوير»، نتسكع قليلاً، نستمع إلى الموسيقى، نتناول شيئًا ما، نختلط بالمارة، أريد أن أشعر وكأننا كأطفال في السابعة.

يضيق هو عينيه مبتسمًا قبل أن يدير محرك السيارة قائلاً:

- لنفعل اللا شيء.

أبتسم مكررة:

- لنفعل اللا شيء.

●●●

على أطراف ال «تايمز سكوير» نقوم بركن السيارة في أحد مواقف السيارات ثم نترجل من السيارة ونتجه إلى الساحة. تستقبلنا لوحات الإعلانات النيونية الضخمة المبهرة المثبتة على واجهات المباني وناطحات السحاب، تبث دعايات مصورة لمختلفة المنتجات من طعام وشراب وملبس، وحتى بعض الألعاب والبرامج الرياضية الشهيرة.

عشرات الآلاف من المارة يحتلون الساحة وشوارعها ولا موضع لقدم، نتوغل أكثر بينهم حتى نصير جزءًا من ذلك النسيج ويبتلعنا ذلك الزحام.

عند أحد الأرصفة نشاهد بعض المارة الذين يتحلقون حول شيء ما، نقترب أكثر حتى يتضح لنا سبب ذلك التجمهر وهو قيام بعض الأطفال بالتقاط الصور مع أشخاص يرتدون أزياءً تنكرية متقنة لبعض الشخصيات الكارتونية الشهيرة، مثل سبايدرمان، سبونج بوب، سيمسون، دونالداك، وبالطبع شخصيتي المفضلة «إيور».

وكطفلة في الخامسة أهرع من دون تفكير نحوه لأحتضنه مما يتسبب في اختلال توازنه ونسقط أرضًا نحن الاثنان لتنهال علينا ضحكات الجميع بما فيهم إليوت.

يساعدنا إليوت للنهوض أنا وإيور لأعتذر بعدها له، أقصد لإيور عما فعلته ثم أطلب من إليوت أن يلتقط لي صورة معه قبل أن نمضي في طريقنا.

أشعر بعدها بالجوع فنتوقف عند أحد أكشاك الطعام السريع، وبعد الانتظار في طابور يتكون من خمسة أشخاص يأتي دورنا فنقوم بشراء شطيرتي نقانق، علبتي مياه غازية وطبق من البطاطا المقلية الغارقة في الجبن.

نتكىء إلى أحد الموانع الحديدية التي تفصل بين الرصيف والطريق ثم نبدأ في تناول الطعام، يقرب إليوت إصبعًا من

البطاطا مغموس في الجبن من فمي قبل أن يبتسم في مكر ويغير مسار الإصبع ليلوث به أنفي وهو يضحك متلذذًا. ومن دون أن أضيع لحظة واحدة أتناول حفنة من البطاطا المقلية أنا أيضًا وألوث بها وجهه بالكامل. يضحك إليوت محاولاً إزالة آثار الجبن العالق بوجهه.

- أنتِ مجنونة!

- أنت من بدأت!

- أنا لم ألوث إلا أرنبة أنفك فقط.

- عليك أن تتحمل تبعات مزاحك يا إليوت.

أقولها ضاحكة وأنا ألتقط له صورة بهاتفي يظهر بها غاضبًا ملوث الوجه بالجبن مما يجعلني أذهب في نوبة من الضحك يستغلها هو في اختطاف الهاتف من يدي، يشاهد الصورة بملامح غاضبة ثم ينفجر ضاحكًا هو الآخر. وبعد أن تهدأ عاصفة الضحك تلك التي أصابتنا يبتسم إليوت في هدوء قائلاً:

- لم أظن أبدًا أن اللا شيء معكِ سيكون بذلك الجمال.

يقترب مني أكثر معيدًا خصلة من شعري خلف أذني وهو يهمس:

- اللا شيء معكِ أروع بكثير من فعل كل شيء بدونك.

أبتسم في خجل فيمرر أصابعه ببطء على خدي قائلاً:

- هل يمكنك أن تبتسمي على مهل؟ كي أستطيع مشاهدة مراحل اكتمال القمر بوضوح.

بعينين متسعتين أنظر له والخجل يقتلني، أرفع اصبع بطاطا مهددة إياه وأنا أحاول السيطرة على قلبي الذي استحال كرة مطاط تتقافز داخلي صدري، أقترب منه قائلة:

- أقسم أن أدفن وجهك هذه المرة بالكامل في طبق البطاطا!

- على استعداد أن أستحم في حمام سباحة يمتلىء عن آخره بالبطاطا المغموسة في الجبن إذا كان الثمن هو أن أحظى بابتسامتك تلك مرة أخرى.

يقترب محيطًا وجهي بكفيه وهو ينظر في عينيّ مكملاً:

- في الحقيقة أنني على استعداد لتعبئة ابتساماتك في زجاجات كي أرتشف منها كلما أظلمت روحي.

أكاد أن أخنقه في تلك اللحظة، إبتسامة ضخمة توشك أن تطفو فوق ملامحي، أدير وجهي بسرعة مغادرة وأنا أفلت تلك الابتسامة شيئًا فشيئًا حتى تحتل وجهي بأكمله.

●●●

نسير ونسير ونحن نتبادل التعليقات حول كل شيء حولنا، تنطلق في المكان أغنية ما

Pedestal – Charlie Lim

يتسابق صوت نغماتها مع الضوضاء المحيطة بنا كي تصل إلى آذاننا بالكاد. نتوقف عند أحد منافذ بيع الهدايا فيبتاع لي إليوت بالونتيّ هيليوم، إحداها على شكل قلب أحمر والأخرى قلب أسود ثم يناولهما لي.

نسير بضعة خطوات أخرى قبل أن نتوقف عند أحد أكشاك بيع حلوى ال «تشوروز».

يناولني إليوت واحدة و يمسك بالأخرى. التشوروز هي عجينة حلوة مقلية على شكل حدوة حصان مغلقة فتحتها، مغطاة برشات من السكر الملون الأحمر ومغموس أطرافها في كأس من الآيس كريم.

ممسكة بالبالونات بيد والتشوروز باليد الأخرى ينظر لي إليوت مبتسمًا ثم يقترب من أذني هامسًا:

- هل تشعرين الآن أنكِ طفلة كفاية أم أن هناك شيء آخر ينقصك؟

بقبضتي المضمومة على خيوط البالونات أضربه في كتفه انتقامًا فيضحك ثم يسير متعثرًا أمامي وهو يحاول ألا يسكب حلواه أرضًا.

يقضم من حلواي قائلاً:

- أتذكرين الطفلة بداخلي، أشعر الآن أن روضة أطفال بأكملها تعربد بداخلي، في خلال أيام سوف يصير لهن كوكب خاص بداخلي.

أطبع قبلة على خده دون إرادة مني قبل أن يكمل هو مستطردًا:

- على أن أعترف مع ذلك، العودة طفلاً معكِ أفضل بكثير من أن أكبر لحظة واحدة مع العالم بأكمله.

أبتسم وقبل أن تتسع ابتسامتي تبدأ ندف الثلج في التساقط فوقنا لتغطي كل شيء حولنا، تغطيه وتغطيني، يبدو الأمر لحظتها وكأن السماء تزيننا.

يمد يده ليزيح ندفة ثلج من فوق أنفي ثم يقترب مني قائلاً:

- أعتقد أن الكريسماس جاء مبكرًا هذا العام، أعلم ذلك لأن القدر حباني بكِ.

يقبل جبهتي قبل أن يكمل:

- ذكريني أن أشكر سانتا، فقد كنت فتىً شقيًا برغم ذلك فلم ينسني.

●●●

الفصل الثامن عشر

أعود إلى غرفتي، أرتمي على فراشي منهكة، أفكر في كل ما يفعله إليوت من أجلي وكل ما يقوله من دون مقابل. من الجميل أن يكون لديك شخص لديه رغبة حقيقية في إسعادك بشتى الطرق فقط لأنه يحبك. يريد أن يشاركك روعة هذا العالم، أن يتقاسم معك كل شيء حلو. أن يلون عالمك بألوانه الشخصية حتى وإن صار عالمه الخاص من دون ألوان.

أفكر في إرسال رسالة نصية له فأتحسس بيدي على الفراش بحثًا عن هاتفي لتلمس يدي شيئًا آخر. أنهض جالسة في الفراش ممسكة بذلك الشيء، دفتر مذكرات جلدي أسود، مدون عليه بحروف حمراء كالدم «روح»، ينقبض قلبي للحظات وترتعش يدي قبل أن أفلت الدفتر ليسقط فوق الفراش مجددًا. لابد أن أبي قد تركه من أجلي كما وعدني.

أمسك الدفتر مجددًا في حذر، أتلمسه كشيء سحري قبل أن أفتحه وأقرأ أولى الكلمات المدونة بداخله بحروف سوداء كبيرة:

«وكأنني أسير في قلب كرنفال ضخم، ولكن العالم بأكمله يعمل على الوضع الصامت».

أقلب الصفحة وابدأ بعد ذلك في قراءة ما بالدفتر. دفتر مذكرات جدتي، روح.

●●●

أستيقظ في اليوم التالي والصداع يفتك بي، متخم عقلي بما قرأته في دفتر جدتي الذي يشع سوادًا وألمًا ووحشة. لا أصدق حتى الآن ما قرأته، ولا أستوعب ما رصدته عيناي من اعترافات وأسرار يحتويها ذلك الدفتر.

اكتئاب، وحدة، وجع، سواد، شتائم، ضرب، اعتداء وتعدي جسدي وجنسي، إهانات لا مثيل لها، لا أصدق إنها تعرضت لكل ذلك الأذى وعلى يد من؟ والدها! حقًا تصلح قصتها أن تكون المادة الخام لأفلام الرعب.

عليّ أن أحادث أبي بشأن ما قرأته، كما عليّ أن أعرف ما حدث بعد ذلك، عن ذلك الجد المزعوم، وهل اصطدم به مجددًا، عن سبب هروبنا إلى هنا، عن كل شيء.

أحاول أن أطرد كل تلك الأشياء من عقلي واستعد للذهاب إلى المدرسة، آخذ دشًا سريعًا، وأتناول الإفطار مع أبي بعد أن أخبره بما يدور في عقلي فيعدني باخباري كل شيء حينما أعود من المدرسة.

●●●

في المدرسة ألتقي بإليوت و نتفق على اللقاء بعد الدوام من أجل الموعد الخامس، نفترق مؤقتًا وألتقي بعدها بكورتني وأذهب معها إلى حصة الكيمياء التي أكرهها حتى النخاع.

بعد انتهاء الدوام المدرسي نلتقي أنا وإليوت خارج المدرسة ثم يصطحبني بعد ذلك إلى الوجهة المنشودة.

أمام ذلك المبنى نستقر بالسيارة، مبنى ضخم تزين واجهته عدد من رسوم الجرافيتي الملونة لعدة أوجه من أشهر أساطير الغناء العالميين مثل سيناترا، إلفيس، بوب مارلي، إيديت بياف.

مرسومة بطريقة تجعله يشع بهجة غير عادية وكأنه قطعة حلوة كبيرة تود لو تلتهمها في تلذذ مغمض العينين.

ندخل إلى المبنى عبر بوابة زجاجية كبيرة، نستقل المصعد حتى نصل إلى الطابق الرابع، نغادره لنجد في مواجهتنا باب خشبي مفتوح تتناهى الموسيقى إلى مسامعنا من خلاله، ندلف عبره فيتعالى صوت الموسيقى، تتضح أكثر، وتنكشف تفاصيل تلك الشقة أمامي.

صالة متسعة تتناثر بها بعض الأرائك الجلدية الملونة بمختلف الألوان، يجلس إليها عدد من الأشخاص من مختلف الأعمار، يتحادثون ويتضاحكون فيما بينهم. على اليسار أرى

رواقًا يحتوى على عدة غرف بين جدرانه. يتوسط الصالة مكتب استقبال كبير يشبه الحانة تجلس إليه فتاة ذات شعر فضي وهاج، ينتشر النمش على وجهها بطريقة جميلة وكأنه سكر مكرمل منثور. تبتسم لنا مرحبة بنا فنتجه إليها. نقترب منها فيقوم إليوت بتحيتها هاتفًا «إيما!» لتبادله هي الأخرى التحية هاتفة «إليوت!» ثم يقوم كل منهما بملامسة قبضة الآخر بقبضته الخاصة بطريقة تشي بالألفة الشديدة. يشير إليّ قائلاً:

- تاليا التي أخبرتك عنها، تاليا هذه إيما صديقتي منذ الطفولة.

يقول جملته الأخيرة مشيرًا إليها. أبتسم وأنا أصافحها قبل أن تبادلني بإبتسامة أكبر قائلة:

- أخبرني إليوت عنك الكثير!

- أرجو أن تكون أشياءً جيدة!

- اطمئني.

يقاطع إليوت حديثنا قائلاً لإيما:

- غرفة ٣

تومـيء لـه إيمـا مشـيرة ناحيـة إحـدى الغـرف فيتجـه إليهـا إليـوت مشـيرًا إليّ كـي أتبعـه، نسـير حتـى نصـل إليهـا، نفتـح بابهـا وندخـل. الغرفـة مبطنـة بأكملهـا مـن الداخـل بمـا يسـمح بعـزل الصـوت تمامًـا عـن بقيـة أنحـاء الشـقة، معلـق علـى الحائـط المواجـه للبـاب تلفـاز مسـطح ذو شاشـة كبيـرة، يسـتريح بـين عـدد مـن السـماعات الضخمـة، علـى اليمـين وعلـى اليسـار تجثـم أريكتـان ملونتـان باللـون الأحمـر، تتوسـطهما طاولـة زجاجيـة صغيـرة ألمـح عليهـا ميكروفونـين و ثلاثـة دفاتـر كبيـرة ذات غـلاف جلـدي باللـون البنـي.

أخيرًا أدركت أين نحن، في حانة كاريوكي كبيرة.

- لابد أنك تمازحني، أنا لا أجيد الغناء.

أقولهـا وأنـا أبتسـم قبـل أن أسـتدير عائـدة إلـى الـوراء في محاولـة بائسـة منـي للخـروج مـن الغرفـة فيسـتوعب إليـوت الأمـر سـريعًا ويغلـق البـاب قبـل أن أبلغـه.

- إلى أين تظنين أنك ذاهبة؟

أحـاول السـيطرة علـى ابتسـامتي التـي ترغـب في احتـلال وجهـي، أعبـث بشـعري موليـة ظهـري لإليـوت ثـم أرفـع كلتـى يـدي عاليًـا قائلـة:

- لن أفعلها، لن أغني! مهما حاولت، أنا لم أغن منذ أن كنت في السابعة!

وبدون أن أشعر أجد حرارة جسده تنبعث خلف جسدي فتبعث زلزالاً بقوة ١٠٠٠ ريختر في كل خلية به وقبل أن أستوعب الأمر يهمس في أذني اليسرى من الخلف قائلاً:

- ألم ترغبي أن نعود أطفالاً من جديد؟

يدير جسدي بين يديه في مرونة تامة وكأنني دمية قماشية، ثم ينظر في عينيّ قائلاً:

- أنا فقط أحقق أمنياتك.

يتركني متراجعًا للوراء بظهره ناحية الطاولة والميكروفونات والدفاتر الموضوعة عليها ومن دون أن يزيح نظره عني يبتسم قائلاً:

- ومن أجل إزالة الحرج عنكِ، سوف أبدأ أنا باحراج نفسي أولاً من أجلك.

يفتح أحد الدفاتر ويقوم بتصفح أوراقها سريعًا وكأنه يعرف مبتغاه جيدًا حتى يتوقف عند صفحة ما، ينقر على سطر ما بها بسبابته ثم يغمز لي وهو يقوم بتشغيل الكاريوكي لتبدأ موسيقى إحدى الأغنيات في اللعب.

Eden – Hozier

يمسك بالميكروفون ويبدأ في الغناء وللحظات لا أصدق أنه صوته بتلك الروعة، أعني لولا أنني أنظر له وهو يغني لصدقت أن ذلك هو صوت المطرب الأصلي! تتسع عيناي ذاهلة قبل أن أصفق له بكفين متوازيين تمامًا كطفلة تشاهد عرضًا سحريًا مدهشًا. أضحك وتتسع ضحكتي حتى تملأ وجهي والغرفة من حولنا، يتفاعل إليوت أكثر من الأغنية ثم يقترب مني مادًا يده لمراقصتي، أمنح له يدي فيلفني حول نفسي وهو يغني ثم يقترب مني بشكل مفاجئ فيحتضنني وو يغني:

No tired sighs، no rolling eyes، no irony

No ‘ who cares ‘، no vacant stares، no time for me

يقولها ثم يبتعد مكملاً بقية الأغنية حتى ينتهي فتشتعل يديّ تصفيقًا له قبل أن أضيق عينيّ في غضب قائلة:

- كم أنت كاذب!

في إنكار مفتعل يرد:

- أنا؟!

- نعم، قلت أنك ستقوم بإحراج نفسك، أنا لم أر أي احراج أو مذلة فيما رأيته لتوي.

- كيف! لقد كنت سيئًا جدًا، كنت أغني بصوت أكثر إزعاجًا من صوت عنزة حامل!

يقولها ثم يعيد غناء جزءًا من الأغنية بصوت هزلي بشع فأنفجر ضاحكة قبل أن أتمالك نفسي قائلة:

- حسنًا حسنًا هذا يكفي.

- دورك إذن.

يناولني الميكروفون ثم يشير بيده الأخرى ناحية الدفاتر كي أختار أغنية من هناك.

أتردد للحظات قبل أن آخذ الميكروفون ثم أجثم على ركبتيّ أمام الطاولة وأبدأ في تصفح الدفاتر ببطء بحثًا عن أغنية أستطيع غناءها من دون أن يبدو كصوت ضفدع ذكر في موسم التزاوج. أتصفح وأتصفح حتى تقع عيناي على أغنية ما أقرر غناءها. أقف مجددًا ثم انظر له قائلة:

- الأغنية رقم ٩٧٨، قم بتشغيلها.

- حسنًا.

يضغط على عدة أزرار بجهاز الكاريوكي لتبدأ الأغنية المرادة في اللعب.

Love You Like A Love Song – Selena Gomez

يهز إليوت رأسه في إعجاب رافعًا حاجبيه ثم يعقد ساعدية منتظرًا أن أبدأ في الغناء. وبصوت مرتعش أبدأ في الغناء فيبتسم لي إليوت مشجعًا وهو يتمتم معي كلمات الأغنية فأبتسم وتتلاشى الرعشة في صوتي ثم أبدأ في التمايل وأنا أغني من دون خوف. أقترب منه وأنا مازلت أتمايل، أنظر في عينيه وكأنني أغوص في أعماقه ثم أغني:

There's no way to describe what you do to me

You just do to me، what you do

يبتسم هو متراجعًا إلى الوراء وهو يرقص، يرفع يديه مدعيًا البراءة مما أقوله ثم يعود ناحيتي وهو يغني معي ما تبقى من المقطع ثم يتركني أكمل الأغنية وحدي حتى تنتهي فيصفق في سعادة وعيناه تلمعان في جذل كما لم تلمعا من قبل.

- أكثر من رائعة!

يقولها فأقاطعة ضاحكة:

- شششش اخرس، كفاك كذبًا!

يقترب مني هامسًا:

- أنا لا أكذب، أتعرفين لما أنا سعيد؟

- لماذا؟

- لأنك لستِ من كنتِ تغني الآن، قلبك هو من كان يغني.. من أجلي.

بكلتا يديه يمسك بوجهي برفق مقتربًا بوجهه مني، تذيبني لمساته، يضطرب قلبي، أنفاسه تحرق ما تبقى مني بين يديه، اللهيب في جسدي يستعر، كل شيء يتلاشى حولي، الغرفة وما بها، الألوان والأضواء والعالم والدنيا، أغمض عينيّ مستسلمة بين يديه، أقترب أنا الأخرى منه مستعدة لحدوث الأروع وإذا بالباب يدق دقتين متتاليتين يعقبه صوت إيما وهي تهتف:

- إليوت، انتهت الساعة، وجب عليّ ان أبلغك.

أفتح عينيّ وكذلك يفعل إليوت وهو يبتعد معدلاً من هندامه، ينظر لي في إحباط هامسًا:

- تبًا!

أتراجع للخلف خطوتان وأنا أعبث بشعري محاولة تخطي الموقف، أعدل من هندامي أنا الأخرى قبل أن يناولني إليوت

يده ويسير مغادرًا الغرفة، ينظر شذرًا لإيما التي تقف بالخارج ثم يتمتم لها قائلاً:

- سوف أقتلكِ!

- ماذا؟ ماذا فعلت؟

تقولها في استنكار حقيقي قبل أن نتركها ونغادر المكان نحن الإثنان. يقوم بعدها إليوت بإيصالي إلى البيت وقبل أن أدخل البيت يقترب مني هامسًا:

- تاليا، ربما لا نحتاج إلى موعد سادس بعد الآن.

- ماذا تعني؟

- أعتقد أن الله قد استجاب لدعواتي المرسلة في تلك الفوانيس قبل الوقت المحدد بيوم واحد.

يأخذ مني الأمر بضعة لحظات قبل أن أستوعب ما قاله قبل أن يتدفق اللون الأحمر في وجهي لأركض بعدها وأغلق الباب ثم استند عليه بظهري، أستل نفسًا عميقًا ثم أبتسم في مكر فأنا أعلم تمامًا أن ما قاله صحيح، صحيح جدًا، فانا أستطيع الشعور بالحياة تسري في ذلك الجزء الصغير داخل صدري، وفي خلال خمسة أيام فقط، وليست ستة، ليست ستة.

●●●

الفصل التاسع عشر

حينما رأيته، ورأيت ذلك المقعد المتحرك تذكرته على الفور، تذكرت أين رأيته للمرة الأولى، ليلة مقتلهم.

يرفع أبي عينيه المثبتتين إلى الأرض ناظرًا إليّ قبل أن يكمل:

- ليلة مقتل أبي وأمي وإخوتي.

يحرك عينيه بعيدًا من جديد وهو يكمل بصوت مذبوح:

- كان هناك ليلتها، يشاهد كل شيء، يشرف على كل شيء، يعطي تعليماته لأولئك المجرمين الذين اصطحبهم معه، اقتل هذا، اغتصب هذه. صوته الآلي البارد مازال يرن في أذنيّ، كنت هناك أسفل الفراش أشاهد كل شيء قسرًا، الجثث التي تتساقط الواحدة تلو الأخرى، الصراخ والآهات، الوجع والمعاناة.

الدماء التي أغرقت كل شيء حولي حتى وصلت إليّ وصرت غارقًا بها، عجلات مقعده، وحديده الصدىء، حذاءه المثبتان إليه بلونيهما الأسود والبني بتلك العلامة التجارية الشهيرة.

أتذكر جنونه و هو يحاول البحث عني هو وبقية رجاله، أتذكر انتهازي فرصة خروجهم من الغرفة ومغادرتي ذلك المخبأ أسفل الفراش، أتذكر رؤيتي لجثث أفراد عائلتي جميعهم، مذبوحين وغارقين في دمائهم في أرضية تلك الغرفة. أتذكر ذعري لحظتها، أتذكر أصوات المجرمين القادمة نحوي من الخارج وفراري من نافذة الغرفة.

أتذكر ركضي تحت شلالات المطر بالخارج في محاولة بائسة من السماء لغسل حمام الدماء الذي سبحت به منذ قليل. ركضت وركضت وركضت من دون توقف حتى وصلت لمنزل جدتي لأنسى كل شيء بعدها وأصاب بتلك اللعنة بعد ذلك، لعنة السبع دقائق نسيان.

حينما قابلته للمرة الثانية وحصلت على الدفتر قمت بربط كل شيء واستوعبت كل ما حدث. علمت بعدها من عدة مصادر أنه يحاول البحث عني باستماتة، كأنه يحاول التخلص من كل شيء يتعلق بأمي، أنا.. وأنتِ.

- أنا؟

أرفع حاجبيّ في ذعر فيكمل أبي:

- نعم، يحاول الوصول إليك في محاولة أخيرة لفعل ما فشل في فعله مع والدتكِ.

وهـذا هـو سـبب هروبنـا إلـى هنـا، فهـو باختصـار قـادر علـى أن يجدنـا في أي شـبر نختبـيء بـه في مصـر. أمـا هنـا فالوضـع مختلـف، خاصـة مـع تزييـف هوياتنـا.

أتراجع في مقعدي للخلف غير مصدقة.

- الآن أفهم.

- أعتقد أنني أجبت عن جميع تساؤلاتك.

تساؤل جديد يطفو في ذهني فأطرحه من دون تردد قائلة:

- وإلى متى سوف ننتظر هنا؟

- حتى يموت و ننتهي من ذلك الكابوس.

- يا إلهي.

أغادر مقعدي لأسير في الغرفة دون هدى قبل أن أهمس:

- كل هذا غير قابل للتصديق!

- لـم أرغـب في اخبـارك بـكل هـذا ولكـن فضولـك انتصـر في النهايـة!

وقبل أن أقول شيئًا ما يغادر مقعده قائلاً بلهجة مغايرة:

- عليّ أن أذهب لاحضار شيء ما، لن أتأخر.

أتذكر موعدي مع إليوت فأجيبه بسرعة:

- سوف أغادر المنزل أنا ايضًا، موعد طارئ.

- أصبحت تغادرين المنزل بطريقة متكررة وفي أوقات ليست باللطيفة يا حلم.

- أبي! أنا فقط أعيش فترة مراهقتي ليس إلا.

- مع من ستخرجين؟

بصوت متردد أجيب:

- صديقة ما

يهز رأسه في عدم تصديق قبل أن يفتح باب المنزل و يغادر.

●●●

لا أعلم إلى متى سوف أخفي إليوت عن أبي، وكيف سأبرر له لقاءاتي المتكررة به في المستقبل، حتمًا سيعرف يومًا ما ويكتشف كل شيء، ستكون كارثة بكل المقاييس!

السؤال الأهم هنا، إلى متى سوف أخفي هويتي الحقيقية عن إليوت! خاصة مع كل تلك الأسرار التي تكشفت لي في الأيام القليلة السابقة.

لم يعد الأمر يتوقف على هوية مزيفة أو دين مغاير، الأمر يتعلق الآن بماضٍ ملوث، وحياة مليئة بالوجع، السواد والمعاناة، ما ذنب إليوت كي يرتبط مصيره بذلك المصير البشع، مصيري. لا أدري إلى متى سوف أحيا في تلك الكذبة التي تكبر كل يوم وتكبر معها علاقتي به، مشاعري ومشاعره، الوضع أصبح معقدًا بلا شك، ربما يجب عليّ أن أنسحب من كل شيء، قلبي فرس بري فر من محبسه يريد أن ينطلق ليجرب كل شيء كان قد حرم منه في الحياة، يجرني على الأرض خلفه بلا هوادة، ناسيًا أو متناسيًا تلك الغمامة على عينيه. لن يهدأ قبل أن يدرك أنه حطم كل شيء، حطم نفسه و حطمني، وحطم إليوت هو الآخر. ربما يكون الحل الوحيد في مثل تلك المواقف أن أقتل الفرس، أن أتخلص منه قبل أن ينال حريته كليًا و ينسف كل شيء حوله.

يرن هاتفي و يطفو معه اسم إليوت على شاشة الهاتف فأسكته وألقيه بجانبي على الفراش.

لابد أنه ينتظرني من أجل الموعد السادس وقد أعد عدته، لن أندهش إذا قام بتحضير ملعب كرة قدم بأكمله من أجل تلك المناسبة، من أجلي. يرن الهاتف مرة أخرى معلنًا عن قدوم رسالة من إليوت فحواها «انتظركِ».

يركض الفرس في محبسه كالمهووس، يحاول القفز عن السياجات العالية التي تحاصره بلا جدوى، ينفث غاضبًا، يركض من جديد ناطحًا كل شيء في طريقه، لا أستطيع تحمل المزيد، أخرج بندقيتي والقمها برصاصة مخصصة لتلك المواقف بالذات، أسدد البندقية نحوه، يتوقف عن الركض للحظة، تتسع عيناه في رعب، أو في استسلام وكأنه ينتظر تلك الرصاصة منذ زمن طويل، أضغط زناد البندقية وتنطلق الرصاصة نحوه، يغمض عينيه قبل أن يتلقاها وتستقر في جسده ليسقط في هدوء دون أدنى مقاومة.

رصاصة فحواها «لن آتي، لا تنتظرني، لا الليلة ولا أي وقت، آسفة». أرسلتها لتوي إلى أليوت على هاتفه الخاص.

●●●

الفصل العشرون

«أفاد المركز الأمريكي لمراقبة الأعاصير بأن إعصار روندا قد أصبح من الدرجة الرابعة وهي الدرجة قبل القصوى، وبأن قوته ستشتد خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة، وأنه يهدد ولاية فلوريدا وبعض المناطق المحيطة بها والتي أعلنت حالة التأهب تحسبًا لوصوله، وتستمر السلطات في المساعدة لإجلاء أكثر من ٩.٨ ملايين شخص من السكان عن منازلهم خشية تعرض حياتهم للخطر، كما نعرف أن إعصار روندا هو أقوى إعصار تشهده الولايات المتحدة منذ إعصار إيرما المدمر الذي شهدته في عام ٢٠١٧. هذا وقد أعلن أحد المسؤولين عن..."

على هدى ذلك الصوت الخارج من سماعات التلفاز أتجه نحو الصالة الغارقة في الظلام، تتلون كل بضعة ثوان بلون مختلف يأتي انعكاسه من شاشة التلفاز، أتوقف للحظات خلف الأريكة التي يتمدد عليها أبي نائمًا في هدوء، عويناته الطبية على وشك أن تسقط عن وجهه، أخلعها عنه في حذر وأضعها على الطاولة أمامه، أدثر جسده بغطاء قطني ثم اتجه إلى المطبخ بحثًا عن شيء لأتناوله. أفتح الثلاجة والتقط عدة معلبات وكيس من الخبز كي أصنع شطيرة أو اثنتين، على سطح الخبز المحمص

أفرد زبدة الفول السوداني وأنا أفكر في ذلك الإعصار الرهيب الذي أوشك على الحدوث حينما يهتز هاتفي المحمول داخل جيب منامتي القطنية، أعلم أنه إليوت، بل أنني متأكدة من ذلك، أتجاهل اهتزاز الهاتف وأكمل صنع الساندويتش ليهتز الهاتف مرة أخرى، أخرجه من جيبي لأجد رسالة باسم إليوت تطفو على شاشة الهاتف أقرأها فتتسع عيناي ويهوي قلبي في قدميّ، فالرسالة تقول «أنا أقف خارج المنزل».

●●●

خلف زجاج نافذة غرفتي أقف دون حراك وأنا أشاهد إليوت الذي يقف متجمدًا بالخارج، يفرك كفيه وينفث فيهما كل بضعة ثوان عله يبعث في جسده بعضًا من الحرارة المؤقتة. يلمحني فيتوقف عما يفعله وكأنما رأى شبحًا، يقترب من النافذة ببطء، يضع يده على زجاجها ثم يتمتم بشفتيه اللتين ازرقتا إثر تلك البرودة «نحتاج أن نتكلم».

ودون انتظار لحظة أخرى أرفع زجاج النافذة إلى الأعلى فتحتل البرودة الغرفة بأكملها ويرتجف جسدي بشدة. أحتضن نفسي في محاولة بائسة مني لمكافحة تلك البرودة التي تجتاحني. وبصوت متجمد أسأله:

- ما الذي أتى بك هنا يا إليوت؟

ضحكة مأسآوية قصيرة خرجت منه لتخفي خلفها ملايين الأجزاء التي تهشمت لتوها داخل روحه. النظرة في عينيه تذبحني كنصل حاد، تتكوم الدموع فيهما كبحر يوشك على الفيضان في أية لحظة، أشيح بوجهي محاولة الفرار منه قبل أن يغرقني. بصوت هش يجيبني:

- لا أستطيع أن أصدق حجم سذاجتي، يبدو أنني كما يقولون جلبت سلاحًا أبيض في معركة بالبنادق.

يتراجع إلى الخلف خطوتين ثم يتقدم خطوة إلى الأمام مرة أخرى مكملاً بصوت يتهاوى:

- كنت أظننا شيئًا ما، شيئًا مميزًا، بالأمس.. بالأمس كنت أعتقد أن هناك شيء ما تحرك بداخلك، ربما مشاعر ما قد خلقت تجاهي، ولدت في ركن هنا أو هناك داخل قلبك.

يهدر بصوت مشروخ:

- عيناك صرحتا بذلك! اللمعة فيهما، لمستك أيضًا، الطريقة التي كنتِ تتنفسين بها، رجفة جسدك حينما تلاصقنا بعد الغناء، كلها أشياء لا يمكنها الكذب. أم أن لديك القدرة والجبروت لاجبارها على فعل ذلك؟

ينكسر شيء ما في قلبي و تسيل دموعي بلا إرادة مني قبل أن أقاطعه قائلة:

- إليوت، أنت لا تفهم! ليس الأمر كما تظن.. أنا.. أنا..

- أنتِ ماذا؟ لثلاث ساعات متتالية انتظرتك وحيدًا غريبًا تتلاطمني أمواج عشرات العاشقين المنتشرين فوق سطح مبنى «امباير ستيت»، تحاصرني مظاهر الاحتفال التي يضج بها المكان، كلما نظرت إلى يميني أو يساري يقتلني عناق هنا أو قبلة هناك، كلماتهم تتسرب إلى أذنيّ فتغتال ما تبقى مني. غابات اللون الأحمر التي وقعت في شراكها كحيوان جريح ينتظر من ينقذه من تلك الشراك، ينتظرك، جعلتني أمقت ذلك اللون إلى آخر أيام عمري. تتساقط عليّ ندف الثلج لتدفنني حيًا وسط بهجة الجميع، لتقتلني في النهاية رسالتك كرصاصة رحمة غير مرغوبة جعلتني أغادر المكان مهزومًا في حرب لم أشارك بها من الأصل.

- إليوت، هناك الكثير من الأمور التي لا تعلم عنها شيئًا.

- يا للخسارة! كنت أظنك مختلفة، والآن ترددين نفس حججهن الواهية.

- إليوت دعني أرتدي شيئًا ثقيلاً وأخرج إليك.

- لماذا؟ الجو دافئ للغاية مقارنة بذلك الصقيع داخل قلبك.

الآن أشعر بروحي تتفتت، أرتجف بشدة إثر ما قاله وليس بسبب الثلوج التي بدأت في التساقط بالخارج، أحاول القفز والخروج إليه حينما يتراجع إلى الخلف هاتفًا:

- لا تفعلي، لقد تأخر الوقت كثيرًا.

يتراجع بضعة خطوات أخرى قبل أن يكمل وعيناه تفلتان الدموع أخيرًا:

- أحمد الله أنني لم أجلب إليك ورودًا الليلة، لذبلت حتى قبل أن تلمسها يداكِ.

يتركني إليوت ويغادر فتنطفئ روحي إثر ما قاله، تهاجمني الثلوج المتساقطة وكأنها تنتقم مني له على ما فعلته به، أغلق النافذة مسندة رأسي إلى زجاجها البارد، تتساقط دموعي في صمت قبل أن ألمح انعكاس شيء ما على الزجاج، أستدير بسرعة لأجد أبي واقفًا على عتبة باب الغرفة، يحمل وجهه أكثر ملامح الدنيا غضبًا، ومن الصالة يتسلل صوت التلفاز ليغتال صمت المشهد بفداحة «هذا وقد وصلت قوة الإعصار

إلـى خمسـة منـذ قليـل وهـي أقـوى درجـة يمكـن أن يصـل إليهـا أي إعصـار..."

●●●

الفصل الحادي والعشرون

السابعة صباحًا، جرافات الثلج تقوم بممارسة عملها بمنتهى الانضباط والتصميم وكأنها ترغب في إعادتنا إلى مدارسنا بأقصى سرعة، توقفت الدراسة منذ أسبوع، منذ تلك الليلة بالذات بسبب الثلوج المتراكمة، حيلة من السماء للمباعدة بيني وبين إليوت فلا حاجة لكلينا لمزيد من المصادمات خاصة في الأسبوع الفائت.

مرتدية بنطال مهلهل وقميص قطني مجعد أخفي رأسي بأكمله في قلنسوتي كي لا يرى أحد شعري المنعكش، عينيّ المتورمتين، وذلك السواد الذي يظلل أسفلهما وكأنني مدمنة مخدرات بائسة، أسير في الرواق المؤدي للخزانات بخطوات متخبطة أصطدم في كتف هذا أو تلك دون أن أعتذر. أهرب من ضجيج الجرافات وأصوات الطلاب من حولي بقائمة من الأغاني التي تلعب في السماعات المثبتة إلى أذنيّ، تلعب أغنية جديدة

Paper Hearts – Tori Kelly

أقوم بزيادة درجة الصوت إلى الحد الأقصى ثم أضع يديّ في جيوب قميصي وأكمل المسير بوجه مسدد نحو أرضية الرواق خوفًا من مواجهة الجميع، خاصة إليوت. أصل إلى الخزانة أخيرًا، أفتحها ببطء، تواجهني صور البولارويد المثبتة بها من الداخل، صوري أنا وإليوت في الخمسة مواعيد الخيالية، الصورة المثبتة بالأعلى تخص تلك الليلة في ذلك القارب الخشبي، الأغنية التي مازالت ترن في أذنيّ، والفوانيس الورقية المزينة بالدعوات تطفو حولنا في السماء، صورة أخرى لنا في ذلك الملعب الثلجي ونحن نرقص تحت الأضواء المسلطة علينا بمختلف الألوان المبهرة، صورة ثالثة لنا في السيارة ونحن نتنقل في أنحاء مانهاتن ليلاً، صورة رابعة عند ذلك الفندق القديم أمام تلك السينما العملاقة التي صممها إليوت بنفسه، وصورة التقطناها بالتايمز سكوير بصحبة «إيور» الذي اصطدمت به، والصورة الأخيرة داخل ذلك الكاريوكي الذي وصلنا فيه إلى ذروة علاقتنا. تتحداني الصور كشواهد قبور تحتضن بداخلها جثث ذكريات قصة قمت بقتلها عمدًا قبل أن تكتمل.

كتلك الأجهزة الكهربائية، الهواتف النقالة، أو عبوات المياة الغازية التي يتم إنتاجها تحت اسم «اصدار محدود»، كنا كذلك اصدارًا محدودًا، اه لو كنت أعرف أننا معنونان بواسطة

القدر تحت ذلك الاسم لاستمتعت بكل لحظة مرت بأقصى ما استطعت قبل نفادنا، قبل نفاد ذلك الإصدار.

تمتد يداي لتنتزع الصور الواحدة تلو الأخرى فتتمزق روحي القطعة تلو القطعة مع كل صورة أقوم بانتزاعها حتى أنتهي من فعلتي الشنعاء، وأقوم بالقائها داخل أحد أركان الخزانة المظلمة بعيدًا عن مجال رؤيتي، أغلق الخزانة وأنا أحاول السيطرة على أنفاسي التي تتسابق في الخروج من صدري قبل أن ألمح إليوت يسير مع بقية أقرانه في نهاية الرواق، نتبادل النظرات للحظة قبل أن يشيح هو بوجهه ثم يمضي مبتعدًا.

في ليلة واحدة خسرت كل شيء، علاقتي بإليوت، ثقة أبي، سعادتي، كل شيء. أتذكر ما فعله أبي في تلك الليلة المشؤومة، أتذكر غضبه وثورته، لم أره منفعلاً أبدًا مثل تلك الليلة من قبل. أستعيد ما حدث في عقلي كشريط مسجل ويضمحل كل شيء من حولي. أتذكر جلستنا سويًا تلك الليلة، التوتر يجلس بصحبتنا على نفس الطاولة، يتضخم شيئًا فشيئًا، يتغذى على المشاعر المتصاعدة منا قبل أن يسألني أبي بصوت حاد:

- هل يمكنك إخباري من هذا بالضبط؟

بصوت مرتعش أجيبه:

- إنه..إنه مجرد صديق.

- مممم، وهل يزور الأصدقاء بعضهم البعض في الثالثة فجرًا ويتحادثون أمام نوافذ المنازل؟

بصعوبة أجيبه:

- أبي، سوف أخبرك بكل شيء ولكن عليك أن تهدأ.

يجلس إلى الأريكة دون أن يجيبني فأجلس بالمقعد المقابل وأنا أحاول السيطرة على جسدي الذي يرتجف بطريقة مرعبة.

- عدة لقاءات سريعة، علاقة قصيرة الأمد، حدث الأمر بسرعة ودون أن أدري وجدتني أتعلق به، أو أحبه.. لا أعرف.

تتسع عينا أبي في غضب قبل أن يهدر:

- إلى أي مدى وصلت علاقتكما؟

أدرك تمامًا ما يعنيه فأجيبه بسرعة:

- لم يحدث أي شيء بيننا، أقسم لك، ولا حتى قبلة واحدة، لم يصل الأمر إلى ذلك الحد الذي تظنه.

علامـات ارتيـاح مؤقتـة تظهـر علـى ملامحـه قبـل أن يثـور مجـددًا:

- لماذا يـا حلـم! لماذا! تعلمـين أن ذلـك خاطـئ جـدًا، ضـار جـدًا، لـه قبـل أن يكـون لـكِ، شـخص بديانـة مغايـرة، وجنسـية مختلفـة وثقافـة أخـرى، بغـض النظـر عـن ذلـك الماضـي الأسـود الـذي يطاردنـا، الـذي نختبـىء هنـا منـه والـذي لا يعـرف هـو عنـه أي شـيء.

يحتل الذعـر ملامحـه قبـل أن ينهـض مغـادرًا الأريكـة مقتربًـا منـي:

- أم أنكِ أخبرتيه؟!

- لا لا، لم أخبره بأي شيء.

- وماذا بشـأن ذلـك الحديـث بينكمـا، يبـدو أنـه كان غاضبًـا حيـال شـيء مـا.

أصحح:

- حزينًا وليس غاضبًا.

- لا؟

- لأنني قطعت علاقتي به.

يرتمي أبي جالسًا إلى الأريكة مرة أخرى بملامح تشي بالحزن فاكمل أنا:

- دار بعقلي كل ما قلته أنت الآن وتنبهت متأخرة إلى حجم الخطأ الذي ارتكبته، كان من المفترض أن نلتقي الليلة بمناسبة عيد الحب وكنت أعلم أنني لو فعلت ذلك لصار الأمر بلا رجعة، أعني كنت سأدمر كل شيء، أنسفه نسفًا، حسنًا ربما ما فعلته الليلة أطاح بالفعل بكل شيء ولكن الآن أفضل بكثير من أي وقت لاحق.

يسند أبي جبهته إلى يده قائلاً:

- أشعر بالشفقة عليه، أعتقد أنه يظنك قد تلاعبتِ به ليس إلا، يشعر أنه كان تسلية مؤقتة لم تعد صالحة للعمل.

- هذا صحيح.

و بدون أية مقدمات أنهار باكية فينهض هو ليجلس بجانبي، يحتضنني برفق قبل أن تخرج كلماتي مصحوبة بالبكاء:

- لقد أفسدت كل شيء يا أبي، كل شيء.

- هوني عليكِ يا صغيرتي.

- لابد أنه يكرهني.

- دعكِ من هذا الكلام.

- يكرهني، يكرهني.

بصوت عالٍ أرددها قبل أن تلكزني كورتني في كتفي لتوقظني من من تلك الذكريات

تقترب مني بملامح قلقة، تقرأ انفعالات وجهي فتعانقني في صمت، أبكي فتربت على ظهري حتى أهدأ، تنهي عناقنا ناظرة إليّ قائلة:

- ما بكِ؟

- سوف أخبرك في الاستراحة أو بعد انتهاء المدرسة.

- تبًا للمدرسة! أنا لن أنتظر كل ذلك الوقت وأتركك كما أنتِ.

- وماذا سنفعل.

تنطلق كورتني في صمت درامي لتنطق بعدها بصوت هامس:

- سنغادر المدرسة، هيا بنا.

●●●

اللون الرمادي يهيمن على كل شيء حولنا، السماء، الغيامات، الأرض، وجوه الأشخاص السائرين في الشارع بالخارج، ملابس كورتني، المفرش القماشي الذي يحتضن الطاولة بيننا، والمساحات الشاسعة التي تملأ روحي.

ناظرة إلى القدح الفخاري الموضوع أمامي أقوم بتقليب مشروب الشوكولاتة الساخن في روتينٍ ممل يستمر إلى قرابة الدقيقة قبل أن تنتبه كورتني إلى ما أفعله وتمسك بيدي هاتفة:

- تاليا، توقفي! لقد ذاب كل شيء بالقدح، دقيقة أخرى وسيذوب القدح نفسه بعدها.

تربت على يدي مكملة في هدوء:

- ماذا حدث؟ أخبريني، لم أستطع القدوم إليك بسبب سوء الأحوال الجوية والثلوج المتراكمة كالجبال في كل ركن من مانهاتن، حاولت الاتصال بكِ طيلة الأسبوع وهاتفك لا يعمل، تركت لكِ عشرات الرسائل الصوتية، جربت الاتصال بهاتف منزلك أكثر من مرة، وفي كل مرة يخبرني والدك بأنك نائمة حتى ظننت أنك لا تودين الحديث معي. أقاطعها وأنا أفرك جبهتي في ارتباك:

- لا، كنت فعلاً نائمة أغلب الوقت، كنت فقط أحاول الهروب من كل شيء.

- ماذا حدث؟

أهرب من عينيها اللتين يتقافز الفضول والقلق فيهما وأحيل نظري إلى الشارع بالخارج، طفلان يلعبان سويًا بالحديقة المواجهة للمقهى الذي نجلس فيه، يكسران رمادية المكان بملابسهما الصوفية الثقيلة ذات الألوان المزركشة وقفازات اليد التي تتماشى مع تلك الملابس أحدهم يجثم على الأرض ومستخدمًا يديه يحاول تشكيل كرة ثلجية صغيرة، يحملها في حرص قبل أن يقف ويسددها برفق نحو الطفل الآخر الذي يتلقاها في يديه ضاحكًا دون أن تصدم وجهه، يجثم هو الآخر مسرعًا ليقوم بالمثل، يشكل كرة ثلجية أكبر بكثير، يقف مجددًا ويسددها بقوة غاشمة نحو الطفل الأول لتصطدم في وجهه وتسقطه أرضًا وتظهر علامات الألم على وجهه. للحظة أتخيلنا حالنا أنا وإليوت مثل حال ذينك الطفلين، كان يحاول أن يصنع شيئًا جميلاً من أجلي لأرد عليه بما لا يمكن وصفه إلا بالشيء الشنيع الذي أسقطه أرضًا يتألم نادمًا على كل شيء فعله من أجلي. تخرجني كورتني من شرودي هاتفة:

- تاليا! ماذا حدث؟

ومن دون أن أدير وجهي ناحيتها أجيبها بهدوء:

- قطعت علاقتي بإليوت.

- ماذا! كيف؟ ولما؟

- سأخبرك.

أستل نفسًا عميقًا وابدأ في قص كل شيء عليها، أعني كل شيء، حينما تبدأ الثلوج في التساقط من جديد.

●●●

الفصل الثاني والعشرون

أعود إلى المنزل بعد أن تقوم كورتني بايصالي رافضة أن تتركني أعود بمفردي. عاقدًا ذراعيه يستقبلني أبي وهو يقف أمام باب المنزل في تحفز، يهوى قلبي بين قدميّ، هناك خطب ما، تستطيع أن تشم ذلك على بعد مئة كيلومتر من هنا. حالما أدخل إلى المنزل وألقي بحقيبتي أرضًا ألمح مصدر ذلك الخطب جاثمًا على الطاولة أمامي، تذكرتيّ سفر.

أتهاوى جالسة على المقعد أمامي ومن دون أن أنظر إلى أبي أشير إلى التذكرتين قائلة بصوت مشوه:

- ما هذا؟

- كما ترين، سنغادر أمريكا.

تدهشني قدرتي على الكلام في هذه اللحظة عندما أسأله مجددًا:

- إلى أين؟ ولماذا؟

يتجاهل أبي إجابة أسئلتي، يتجه إلى النافذة ثم يقف موليًا لي ظهره وهو لا يزال عاقدًا ساعديه، أحادثه قائلة:

- كنت أظن أننا سوينا كل شيء، أعني، لقد قطعت علاقتي بإليوت حتى قبل أن تطلب أنت مني ذلك، ولم أقابله منذ تلك اللحظة أو أحاول محادثته، لقد محوته من حياتي بأكملها.

يقاطعني أبي في هدوء:

- ولكنه لم يفعل.

ازدرد لعابي بصعوبة قبل أن أنهض من المقعد قائلة في حذر:

- ماذا تعني؟

- كنت أظن أن القصة انتهت، خاصة بعد الذي حدث في الأسبوع الماضي، ولكن للأسف اتضح أن الضرر الناتج عن نشوء علاقتكما كان أكبر مما ظننت.

يستدير أبي ليواجهني قائلاً:

- بكلمات أخرى، لقد حطمتِ الفتى تمامًا.

ينقبض قلبي إثر ما قاله ويخرج صوتي متحشرجًا:

- ماذا تقصد؟

- منذ تلك الليلة وطيلة أسبوع مضى، كان إليوت يأتي إلى هنا في كل ليلة، ينتظر قبالة نافذتك كالشبح في الثانية صباحًا، يقف هناك بلا حراك، غير عابىء بالثلوج المنهمرة عليه، ولا بذلك الصقيع الذي يجمد الأطراف. لعدة دقائق يظل واقفًا يرتعش قبل أن يغادر وهو يجر اليأس والوجع خلفه في صمت.

أشعر بالألم يحتل صدري، أتهاوى مرة أخرى على المقعد قائلة:

- هل أنت متأكد إنه.. إليوت؟

- في البداية ظننت أنه شبحًا، أو لصًا يقوم بمراقبة المنزل، في اليوم الثالث أتى مرتديًا نفس السترة التي كان يرتديها ليلة قطيعتكما، حينها تأكدت أنه إليوت. اعتقدت أنه سيأتي مرة، اثنتين، ثلاثة على أقصى تقدير، وبعدها سيمل أو سيشعر بالإنهاك والتعب، ولكنه ظل يكرر فعلته لستة ليال متواصلة، في الليلة السابعة قررت الخروج إليه. استطعت اللحاق به قبل أن يغادر بلحظات قليلة، ناديته فتوقف للحظات قبل أن يستدير في بطء ليواجهني.

وجه شاحب، أصابه الهزال، عينان مخضبتان بالدموع يظللهما السواد، باختصار كان أشبه بأولئك المشردين الذين يجولون الشوارع بلا مآوى. وهكذا دار الحوار بيني وبينه في تلك الليلة:

- ما الذي يأتي بك إلى هنا كل ليلة؟

- أنا.. أنا..

- اطمئن، لن أؤذيك.

بكلمات غير مترابطة أجابني بصوت يرتجف:

- الثلوج كثيفة.. المدرسة متوقفة عن العمل. .لا فرصة لرؤيتها..

ثم أكمل ناظرًا ناحية نافذتك:

- أنا فقط.. أفتقدها..

كان يحاول أن يفرك ذراعيه قبل أن يكمل وهو مازال ينظر نحو النافذة:

- كنت أظن أن الأمر كله عبارة عن مزحة سخيفة، أعني حينما أرسلت لي بتلك الرسالة، انتظرت عدة دقائق قبل أن أن أحاول الاتصال بها ليستمر رنين هاتفها دون رد،

كررت الأمر عدة مرات دون فائدة، إمعاناً في ظني الحسن انتظرتها هناك – فوق الامباير ستيت – لساعات ربما تظهر في أية لحظة، حتى بعد ما أتيت إلى هنا ليلتها وغادرت، كنت لا أزال الأمر محض دعابة ستفاجئني هي بعدها بعكس ذلك وتنفي الأمر، يالني من مغفل.

ماسحًا دموعه استدرك ما يقوله قبل أن ينطق مجددًا:

- يجب أن أذهب الآن، سيدي أنا آسف على ما تسببت به من إزعاج لك ولابنتك، سأحاول ألا أكرر فعلتي بالمجيء إلى هنا، ولكنني لن أستطيع أن أعدك بذلك.

- إليوت انتظر.

وقبل أن يمنحني الفرصة لقول أي شيء غادر بسرعة ليتلاشى في الظلام من حيث أتى.

أقاطع أبي متسائلة:

- وهل أتى بعد ذلك، أعنى في الليلة الماضية؟

- لا، ولكنه لن يتوقف عن فعل ذلك، التعاسة التي كانت تبثها عيناه تبرهن على ذلك. ستتعقد الأمور وستزداد سوءًا، كرة الثلج سوف تتدحرج حتى تدمر كل شيء في طريقها.

بعصبية زائدة أقاطعه:

- ولذلك قررت أنت أن توقف كرة الثلج تلك عن طريق سفرنا!

يجيبني أبي بهدوء مقيت:

- نعم.

- ألا تدرك أنك تبالغ في ردة فعلك هذه؟ أعني لما لا نرتحل إلى أي ولاية أخرى وحسب؟

يضحك أبي في سخرية قبل أن يرد:

- آه، نسافر من ولاية لأخرى، كي تصنعين لنفسك عشرات النسخ البائسة من إليوت، أليس كذلك؟

- أبي، ألا تدرك؟ إليوت كان خطأ فادح، ولكنني استدركته.

- وارد جدًا أن تتكرر الأخطاء، نحن بشر.

يجلس إلى الأريكة ممسكًا برأسه قبل أن يهمس بعينين متسعتين ناظرًا إلى الأرض:

- أنتِ لا تدركين حجم الكارثة التي تسببتِ بها.

يتصاعد الغضب بداخلي لأثور في النهاية كبركان صارخة:

- أنت من تسببت في ذلك! أنت!

يجيبني في استنكار مشيرًا إلى نفسه:

- أنا يا حلم؟

- نعم أنت! تكلمي مثلهم، تصرفي مثلهم، امش مثلهم، اضحكي مثلهم، ابك مثلهم، افعلي كل شيء مثلهم، كي لا يشك أحدهم بكِ.

تبدأ دموعي في التساقط قبل أن أكمل:

- لم تحذرني أبدًا من الوقوع في الحب مثلهم، لم تخبرني أن للأمر أضرارًا جانبية ينبغي الاحتراس منها.

ينتصب أبي واقفًا والغيامات بدأت في احتلال عينيه، يقترب مني قائلاً:

- حلم..

أبتعد عنه ملقية في وجهه بكلمات محشوة بالبكاء:

- أنت لا تخلق وحشًا وحينما لا يعجبك ما صنعته يداك، تغضب وتثور وتقرر بعد ذلك أن تهدم ما صنعت بالتخلص منه. أنا وحشك الذي صنعت، فتعامل مع الأمر، لا تتهرب منه.

يقترب مني أكثر قائلاً:

- أنا لم أخبرك بعد إلى أين سنسافر.

أهدأ قليلاً قبل أن يباغتني هو مكملاً:

- سنذهب إلى مصر.

●●●

الفصل الثالث والعشرون

متجهة إلى شباك مراجعة جواز السفر، ومن خلفي أجرجر حقائبي، بضعة أحلام مهشمة، قلب كسيح، وحفنة من خيبات الأمل التي أصرت ألا تتركني.

ربما المزية الوحيدة لتلك الرحلة أنني سوف أعود أخيرًا لوطني الأصلي، سوف يكون باستطاعتي أخيرًا أن أستخدم هويتي الحقيقية، اسمي، لغتي، ديانتي، كل شيء. أخيرًا سأكون على سجيتي.

أتذكر صبيحة أمس بالمدرسة وتلك الحفلة التي دشنها الجميع من أجل وداعي، بالطبع لم أخبرهم بوجهتي الحقيقية، أخبرتهم كذبًا بأنني سأنتقل إلى أوروبا من أجل ظروف عمل طارئة تخص أبي.

لحسن الحظ او سوءه لا أعرف بالتحديد، لم يكن إليوت حاضرًا لتوديعي، انتظرته كثيرًا ولكنه لم يأت، شيء صغير بداخلي يخبرني بأنه فعل ذلك ثأرًا لخذلاني له وجعله ينتظر لساعات طويلة في تلك الليلة البائسة. أفكر فيما خلفته من أضرار في قلب ذلك التعيس، أضرار أعرف مؤكدًا أنها سوف تخلف ندوبًا عميقة لن تشفى حتى مع مرور الوقت.

لا أعرف بأي منطق كنت أتصرف مع إليوت، مندفعة بلا عقل وراء تلك المشاعر الطائشة التي سيطرت على قلبي. لا يعني هذا أنني لا أحبه، بالعكس، ولكن الأمر كان أشبه بالفاكهة المحرمة التي لا ينبغي المساس بها.

- آنسة تاليا! يا آنسة!

يخرجني نداء الضابط المختص بمراجعة جوازات السفر من شرودي فأحاول بناء إبتسامة لا تلبث أن تتلاشى من فوق ملامحي، يشير لي بيده فأناوله جواز السفر، يتصفحه وهو يسدد لي عدة نظرات قبل أن يختمه ثم يناولني إياه بوجه ممتعض.

أضع حقائبي على السير المخصص لها قبل أن أعبر البوابة الأمنية ثم أتجه إلى صالة الانتظار وأجلس على أحد المقاعد البلاستيكية بجانب أبي الذي كان يتبعني. من جيب سترتي أخرج نظاراتي الشمسية لأرتديها، وسماعات الهاتف لأثبتهما بأذني في محاولة بائسة لتجنب الحديث معه بأي شكل من الأشكال. أقوم بتشغيل قائمة الأغاني بحثًا عن أغنية تلامس ما أشعر به دون أن أجد أي شيء مناسب، أتخطى العشرات من الأغاني حتى أصل إلى نهاية قائمة الأغنية لتلعب آخر أغنية.

Don’t Forget About Me – Cloves

في نفس اللحظة التي يظهر فيها من لم أتوقع ظهوره، خلف الزجاج الفاصل بين صالة الدخول والانتظار يقف هناك مديرًا عينيه في أنحاء المكان بحثًا عني كالمجنون، بل اعتقد أنه صار مجنونًا بالفعل، المسكين إليوت. يدني قلنسوة سترته من أجل الحصول على رؤية أفضل، فأرى عينيه الذابلتين، السواد الذي يظللهما، وجهه الشاحب.

أقف متجهة نحوه فينتبه إلى حضوري ويقترب أكثر من الزجاج، يرفع يده اليمنى ببطء ويلصقها به. أخلع نظاراتي الشمسية مقتربة أنا الأخرى من الزجاج، أرفع يدي اليسرى وألصقها بنفس الموضع من الناحية الأخرى للزجاج لتبدو يدانا وكأنهما يتلامسان.

أتمتم ببطء:

- آسفة.

وكأنها إشارة انطلاق كانت عيناي تنتظرها كي تبدأ في البكاء ليبادلني هو الآخر البكاء في صمت، يغمض عينيه وهو يلصق جبهته بالزجاج، يرتج جسده في عنف فينكسر قلبي متفتتًا إلى أجزاء صغيرة تملأ الأرض من حولي. نظل على ذلك الحال إلى وقت ليس بالقليل حتى أشعر بيد ما تلامس كتفي برفق، ثم صوت أبي يهمس:

- لقد حان الوقت، ستفوتنا الطائرة.

أتجمد في موضعي لحظات فينتزعني أبي ونسير بجانب الحاجز الزجاجي متجهين إلى الطائرة، يركض إليوت محاولاً اللحاق بي وهو يضرب على الحاجز بيديه وكأنه يحاول النفاذ إليّ خلاله. أسير يجرجرني أبي خلفه وكأنني متجهة نحو حبل المشنقة، يشاهدني إليوت من الناحية الأخرى من الحاجز وهو يصرخ ويضرب الزجاج بيديه، نصل أنا أبي أخيرًا إلى المضيفة الأرضية التي تراجع جواز السفر والتذاكر ثم تسمح لنا بالمرور، أحاول أن أتجمد في موضعي من أجل اقتناص لحظات إضافية أحظى بإليوت فيها فيقتلعني أبي ويدفعني إلى الداخل، على الناحية الأخرى تسبب الضجيج الذي أحدثه إليوت في استجلاب رجال الأمن الذين هرعوا نحوه، أمسكوا به واجتذبوه بعيدًا وهو يركل، يسب ويبكي حتى ابتعد كثيرًا لينغلق باب الأنبوب المؤدي للطائرة وتنعدم الرؤية بيني وبينه نهائيًا.

●●●

الفصل الرابع والعشرون

تهبط طائرتنا بساحات مطار القاهرة، أغادرها فتستقبل أنفي رائحة العادم وتحتضن عينيّ ذرات الغبار التي تحتل الجو بأكمله. أبتسم رغم كل شيء محاولة نسيان ما حدث بالأيام الماضية، يطبع أبي قبلة على جبهتي قبل أن يمسك بيدي وينزل بي درج الطائرة كطفلة صغيرة.

نغادر المطار بعد الانتهاء من جميع الاجراءات من تفتيش، مراجعة جوازات السفر واستلام الحقائب. نستقل بعدها سيارة أجرة لوجهة لا أعلمها بعد.

في شوارع القاهرة تسير بنا السيارة كسلحفاة مريضة نتيجة للمرور الخانق. من نافذتي أشاهد البنايات القديمة المكدسة، اللافتات الاعلانية الضخمة التي تحتل واجهات تلك البنايات حاملة وجوه بعض الفنانين والفنانات، الأرصفة المكتظة بالمارة، الحوانيت والمتاجر، المقاهي والمطاعم، السيارات المتهالكة التي تتزاحم جنبًا إلى جنب مع أحدث أنواع السيارات وأفخمها.

طرقتان على زجاج السيارة أنتبه على إثرهما لكل شيء حولي ولصاحب الطرقتين، سيدة عجوز ذات وجه متغضن، عين

مفقوءة، وملامح قاسية، تنساب قطرات العرق على وجهها في تحدٍ واضح لبرد فبراير القارس. تعتصر بيديها عبوات مناديل ورقية صغيرة وتتفوه ببضعة كلمات تصطدم بزجاج السيارة المغلق وتسقط أرضًا قبل أن أدري كنهها، يشيح لها السائق في غضب قبل أن يتحرك وتتجه هي إلى سيارة أخرى.

تبدأ الأمطار في الهطول بغزارة وأشاهد جميع المارة يهرعون بالاختباء أسفل الشرفات محتمين بها من بأس تلك الأمطار الشديدة.

«أعتقد أن الكريسماس جاء مبكرًا هذا العام، أعلم ذلك لأن القدر حباني بكِ."

تهاجمني كلمات إليوت وتعصف بي فأحتضن نفسي تلقائيًا وكأنني أحاول استحضار دفء لم يعد موجوداً، دفئه هو. ينتبه أبي لما أفعله فيربت على يدي مبتسمًا في ذبول.

من جيب سترته يخرج علبة بلاستيكية سوداء، يفتحها ثم يلتقط من داخلها ساعة رياضية أنيقة يلبسني إياها في رقة قائلاً:

- هدية بمناسبة الوصول إلى لمصر.

نغادر القاهرة وتبدأ الصحراء في الاتساع حولنا تدريجيًا. يغالبني النعاس وأستيقظ من اغفاءتي منتبهة إلى أبي الذي يدثرني بمعطفه وهو يتبسم، أبادله الإبتسامة قبل أن أغفو من جديد. أستيقظ بعد عدة ساعات على صوت السائق وهو يخاطبنا قائلاً:

- حمد لله عالسلامة، وصلنا.

يومىء له أبي قبل أن يتباطأ السائق بالسيارة متجهًا نحو المدينة التي تستقبلنا بواباتها نحن وعشرات السيارات الأخرى، وبرؤية مشوشة أقرأ اسم المدينة المدون بخط كبير أعلى تلك البوابات «دهب».

●●●

تحتضننا شوارع مدينة دهب في ترحاب بأبنيتها القصيرة المتناثرة بعكس مباني القاهرة الشاهقة المتزاحمة في عدائية واضحة ظاهرة للعيان.

لعشرة دقائق نستمر في السير بالسيارة حتى تبدأ الصحراء في الاتساع مرة أخرى وتبدأ الجبال بالظهور حولنا، ما عدت أفهم شيئًا، هل نخرج من المدينة مرة أخرى؟ هل جئنا بالخطأ؟ تتضارب التساؤلات وقبل أن تخرج من عقلي لتلتهم أبي والسائق وكل شيء حولنا يربت أبي على يدي هامسًا:

- وصلنا.

يتباطأ السائق بالسيارة ثم يتوقف تمامًا، نترجل منها، نلتقط حقائبنا قبل أن يلوح لنا السائق مودعًا ويمضي. بعينين متسعتين أنظر لأبي تاركة الحقائب تفلت من يديّ لترتطم بالرمال التي تحيط بنا بلا نهاية. ينتبه أبي لما فعلته فيهتف متعجبًا:

- ماذا بكِ؟!

- ماذا بي؟ أبي هل جننت؟ أأتيت بنا هنا كي تقتلنا؟ كي نموت جوعى وعطشى؟

في دهشة حقيقية يجيبني:

- نموت؟ بالطبع لا، من قال هذا؟

- أبي! أرجوك! أنظر حولك، لا شيء حولنا سوى الرمال، الرمال الغبية!

أقولها ثم أركل الرمال بقدمي بكل ما أوتيت من قوة ثم أنهار جاثمة على ركبتيّ مستعدة للبكاء في أية لحظة، وقبل أن أبدأ في نوبة جديدة من البكاء يمدي لي يده كي أنهض، أقبض عليها بيد مرتعشة وأنهض في بطء. يقترب مني مشيرًا

بيده الأخرى إلى نقطة بعيدة في الأفق، نقطة بيضاء صغيرة تُرى بالكاد فقط لمن يدقق البصر، تتسع عيناي ويتراقص قلبي فرحًا، يربت أبي على كتفي هامسًا:

- هذه هي وجهتنا.

●●●

نلملم حقائبنا ونسير باتجاه تلك النقطة البيضاء لدقائق ودقائق، نتوقف بين الفينة والأخرى لنرتشف جرعة ماء أو نستل عدة أنفاس لاسترداد طاقتنا من جديد.

اقتربنا كثيرًا، أعرف ذلك لأن النقطة البيضاء كبرت، وبدأت في اتخاذ شكل محدد، لأكون أكثر تحديدًا فالنقطة البيضاء أصبحت منزلاً صغيرًا يتكون من طابقين ذو لون أبيض يميل إلى الصفرة ربما سعيًا في الاختفاء بين كثبان الرمال من أعين الفضوليين والعابثين.

- لما لم نأتِ إلى هنا بالسيارة؟

أقولها وأنا أعدل من وضع إحدى الحقائب على ظهري.

- بتلك السيارة؟ مستحيل! نحن بحاجة إلى سيارة رباعية الدفع وإلا ستعلق بنا في تلك الرمال.

تمر عشرة دقائق أخرى قبل أن نصل أخيرًا إلى الساحة المحيطة بالمنزل يستقبلنا قطيع من الأغنام يقوده طفل لا يتعدى التاسعة ربما، يتبادل أبي معه الحديث بلهجة لا أدري كنهها قبل أن يعبر الساحة متجهًا خلف المنزل مشيرًا لي كي أتبعه. ندور حول المنزل تهاجم أنوفنا رائحة قهوة قوية وتتهادى إلى مسامعي صوت أهازيج غنائية بنفس اللهجة التي كان يتحدث بها أبي منذ قليل. على عدد من الحصر والسجاد المزركش بألوان مبهجة يجلس عدد من الرجال والقليل من النساء في ركن قصيّ من المجلس يصنعن القهوة بطريقة بدائية فوق فحم مشتعل، يرتدون جميعهم ملابسًا لا تمت إلى عصرنا الحديث بأية صلة، أعتقد أنهم ربما يكونوا بدوًا.

يلحظنا الجميع ويتوقفون عن الكلام والغناء، أعتقد ربما تتوقف القهوة عن الغليان أيضًا.

- عايش! مستحيل!

تنطلق تلك الكلمات بصوت عميق خشن قبل أن ينهض صاحبها متجهًا إلينا على مهل، شيخ عجوز أتت عليه الشيخوخة وأتى عليها، يحتل اللون الأبيض لحيته بالكامل وحاجبيه الكثيفين وكأنها لم تكتف بتلك اللحية، متكئًا على عصا خشبية عتيقة يقترب أكثر قبل أن يتجه أبي نحوه ويذهب الاثنان في عناق حار

ينتهي بعد عدة ثوان يشير لي أبي بعدها بالاقتراب نحوهما قائلاً:

- الشيخ مهران، صديق قديم.

يعلو صوت الثرثرة من حولنا تدريجيًا، أحاول تجاهل نظرات الجميع المثبتة علينا، أبتسم قبل أن يكمل أبي مربتًا على كتفي:

- حلم، ابنتي.

بابتسامة متهالكة ينظر العجوز نحوي قائلاً بصوته الخشن:

- تشبه والدتها كثيرًا، ظننتها هي في أول الأمر.

- نعم، أقع في ذلك الفخ كثيرًا.

- أين كنت طوال ذلك الوقت؟

يتردد أبي قبل أن يجيبه:

- لذلك قصة طويلة، سوف أشرحها لك لاحقًا. نريد الآن فقط أن..

- أعرف أعرف، سآمرهم بتجهيز غرفة لكما كي تستريحا ثم تأكلا شيئًا، وبعدها تقص عليّ كل شيء.

وبصوت أكثر عمقًا يكمل العجوز قائلاً:

- بالمناسبة، هناك من يبحث عنك.

يرتعش أبي قابضًا على يدي قبل أن يسأل العجوز الذي ولانا ظهره:

- يبحث عني أنا؟ من؟ أجبني!

- أتت منذ يومين من أجلكما، قالت أنها تجوب الأرض بحثًا عنكما منذ سنوات، غادرت هذا الصباح، ربما لو أتيت منذ ساعتين فقط للحقت بها.

يدير العجوز رأسه وبنصف وجه يكمل بطريقة درامية:

- زوجتك السابقة.. حياة.

●●●

الفصل الخامس والعشرون

أستيقظ من النوم ناظرة حولي في قلق، يأخذ مني الأمر عدة ثوانٍ حتى أستوعب أين أنا، من تحت وسادتي ألتقط هاتفي، تخبرني الساعة في شاشته أنها العاشرة مساءً، أي أنني نمت لتسع ساعات وأكثر. اعتدل في فراشي متثائبة في كسل، الفراش الآخر مرتب وفارغ، لابد أن أبي استيقظ قبل أن أفعل أنا وغادر الغرفة، ربما يكون جالسًا بالأسفل مع صديقه ذاك يبكي على الأطلال بصحبته، قلقة أنا عليه، تلك النظرة التي علت وجهه حينما استقبل خبر قدوم أمي إلى هنا وبحثها عنا، خليط مرعب من السعادة والفزع.

أنهض من الفراش، أرتدي شيئًا مناسبًا، ألتقط هاتفي ثم أغادر الغرفة متجهة للأسفل.

بفناء المنزل يجلس مجموعتين منفصلتين تبعد إحداهما عن الأخرى عدة مترات، المجموعة الأولى تخص الرجال بينما الأخرى تخص النساء بالطبع. في المسافة الفاصلة بينهما يرقد موقد ناري بدائي يتغذى على الفحم والخشب يعلوه جسد خروف صغير يشوى على مهل، يشرف على دورانه فتى يبدو في الثانية عشرة.

يلمحني أبي فيبتسم مشيرًا لي بالجلوس مع المجموعة الأخرى، في تباطؤٍ أسير إلى وجهتي بينما تبدأ المجموعة الأولى في الشروع بالغناء ثم ينهض أحدهم ويبدأ في الرقص بطريقة غريبة وسط ضحكات الجميع وتصفيقهم.

إلى المجموعة الأخرى أصل ثم أفترش الأرض قبل أن يرحبن بي النساء في ود لا مثيل له، أقابل كلماتهن التي لا أفقه معانيها بإيماءات متتالية وإبتسامات خجلى. تنقذني من كل ذلك إحداهن حينما تبدأ في الغناء ليتبعنها جميعهن بالغناء، التصفيق والزغاريد، ثم تنهض واحدة منهن وتبدأ في الرقص!

في المجموعة الأخرى أحدهم يجذب أبي من أجل رقصة ثنائية، يرفض أبي في البداية ثم يرضخ تحت الحاح الجميع، أبتسم قبل أن تنتزعني يد إحداهن من أجل رقصة مماثلة في مجموعتنا، أنهض على مضض، تمسك هي بيديّ مشجعة، أحاول مجاراتها ومحاكاة ما تفعله فأفشل وأضحك. بعد نصف دقيقة من ذلك الآداء الهزلي أستأذنهن وأغادر.

تتهادى إلى أنفي رائحة اليود فأعرف أن البحر قريبٌ من هنا، أسير مبتعدة عن الصخب، الرقص، الغناء والشواء والأطفال التي تركض. ناظرة إلى القمر الذي قد ولد لتوه أصل إلى الشاطئ. تتسع إبتسامتي قبل أن أخلع نعليّ مقتربة

من المياه، أسير تاركة الأمواج تدغدغ قدميّ وتعيدني طفلة في الخامسة.

أتذكر منزلنا القديم المطل على الشاطىء، عشرات بيوت الرمال التي بنيناها، أنا، أمي وأبي، أتذكر سيرنا نحن الثلاثة على الشاطىء قبل أن يحملني أحدهم ويركض بي فاردًا ذراعي كطائرة صغيرة تستعد للإقلاع نحو الشمس.

تخبو أصوات الصخب والغناء الآتية من بعيد لتغمرها أصوات الذكريات التي تتعالى بداخلي، يتداخل كل شيء وأشعر بالسماء تدور بي، تتضوع حولي رائحة كريهة نفاذة، يسقط الهاتف من يدي لا إراديًا وأجدني على وشك أن أغرق في شبر الماء الذي كنت أسير به منذ قليل.

تتشوش رؤيتي ويمتزج كل شيء أراه، البحر، الرمال، النجوم والسماء، يهيأ لي أني أرى شبحان يتشحان بالسواد وعجلات مقعد متحرك، أدير رأسي ناحية الصخب، ناحية أبي، مازال يرقص ضاحكًا وهو يشير إلى أحدهم بالنهوض، أرفع يدي مشيرة له في يأس قبل أن يسّود كل شيء وأسقط أنا في ذلك السواد.

●●●

الفصل السادس والعشرون

«أنت جيت شهقة يا رمضان؟»

هذا أول ما يطرق أذنيّ حينما أعود إلى وعيي من جديد يتبعه صوت ضحكات جمهور صاخب، أفتح عينيّ بصعوبة فتستقبلان السقف المدلى منه ثرية عتيقة تبدو وكأنها عنكبوت نحاسي. أدير عينيّ في أرجاء المكان، غرفة شاسعة مشبعة بضوء الشمس الذي يحتلها من خلال عدة نوافذ زجاجية مغلقة تسترها ستائر مخملية خفيفة على استحياء.

مثبت إلى أحد الجدران ثلاثة أرفف خشبية مغطاة بأوراق جرائد قديمة، على أسطحها تتناثر عدة أغراض أثرية منها جهاز راديو بني مستطيل الشكل، ذو هيكل خشبي، له زران على هيئة عجلات صغيرة وشاشة زجاجية تظهر بضعة أرقام محبوسة من خلفها. وبجانب الراديو أرى آلة كاتبة ذات لون أسود قاتم يزاحمهما هاتف منزلي أحمر يحمل دائرة حديدية بداخلها عدة دوائر صغيرة مدون بها الأرقام من صفر إلى تسعة.

على الرف الذي يعلوه أرى عدداً من شرائط الكاسيت المتراصة بجانب كاسيت أصفر ذو سماعة واحدة تجاوره مكواة

حديدية صدئة. لا يحمل الرف الأخير إلا غرض واحد فقط إلا وهو قفص طيور ذهبي متوسط الحجم فارغ تمامًا إلا من أرجوحة ذهبية صغيرة تتدلى من سقفه. على الجدار بجانب الرفوف تلتصق ساعة حائطية عتيقة ذات بندول متوقف عن العمل، تشير عقاربها إلى الساعة السابعة مساءً بالضبط.

مازال صوت المسرحية الثمانينية يصدح بأجواء الغرفة، أحاول النهوض ببطء كي أتبين مصدره، تلفاز قديم يشبه الصندوق يحمل هوائي بدائي على هيئة قرنين حديدين، موضوع على طاولة خشبية كبيرة تحمل على رفها السفلي جهاز فيديو وعدد من شرائط الفيديو.

ينفتح باب الغرفة ويتهادى من خلفه صوت طنين موتور خافت ليظهر من بعدها مقعد آلي متحرك يجلس إليه كابوس حيّ، تمامًا كما وصفه أبي، وجه ضاعت معظم معالمه وشاخ ما تبقى منه، يرتدي حلة سوداء، كنزة صوفية بنفس اللون تغطي رقبته وقبعة أمريكية الطراز تنافس ملابسه سوادًا.

- صباح الخير، أهلاً بكِ في منزلي المتواضع.

تخرج كلماته بصوت حديدي صدىء جعلني لم أنتبه أنه لفظها باللغة الإنجليزية وبلهجة أمريكية نيويوركية متقنة تمامًا.

ومن دون أن ينتظر ردي يدير رأسه ببطء ناحية التلفاز، يطلق ضحكة أشبه بالفحيح تجاوبًا مع شيء ما ردده أحد أبطال المسرحية ثم انطلق صوته الآلي من جديد:

- مسرحيتي المفضلة، هي الأفضل على الإطلاق. تنتمي إلى فترة الثمانينيات، الفترة التي أعشقها، وكما ترين فإن كل ما بالمنزل هنا ينتمي إلى تلك الفترة بالتحديد. وتستطيعين أيضًا أن..

- لماذا لم تقم بقتلي بعد؟

تخرج الكلمات مني دون أي تنقيح فيستدير ناظرًا إليّ وتبدأ ملامحه في التغير شيئًا فشيئًا، لا أعلم إن كان يبتسم أم يعبس، يتحرك بمقعده مقتربًا من الفراش ثم يتوقف قائلاً:

- بعض الطيور خلقت لا لتذبح، وإنما ليتم الاحتفاظ بها لشدة جمالها.

- الاحتفاظ بها! تقصد حبسها!

- شكليات، في نهاية الأمر الأهم فهي يتم وضعها داخل أقفاص ذهبية تناسب روعتها.

تجبرني كلماته على النظر لا إراديًا إلى القفص الذهبي الصغير، يلحظ هو ذلك فيكمل:

- آه، تلك كانت روبي، ماتت منذ زمن بعيد.

أنهض من الفراش بعصبية شديدة قائلة:

- تعشق أنت حبس الأشياء! لم تستطع أبدًا أن تتخلى عن لعب دور آمر السجن!

ضحكة حديدية صدئة تصدر منه تثير القشعريرة في نفسي، أزدرد لعابي بصعوبة متراجعة إلى الخلف خطوة، يحرك المقعد نحوي قائلاً:

- أنا؟

يقترب أكثر لتتضح بشاعة ملامحه، يحدق فيّ لثوان دون أن يرمش له جفن قبل أن يكمل بصوت يشبه احتكاك القطار بقضبانه لحظة التوقف:

- وكيف يسمى السجن سجنًا إذا كان بابه مفتوحًا؟

يحرك رأسه ببطء مشيرًا نحو القفص الذهبي فأنظر أنا الآخرى لألحظ عدم وجود باب للقفص، فقط فراغ صغير يسمح بهروب أي طائر يتم حبسه داخل ذلك القفص بكل سهولة.

يبتعد هو متجهًا أسفل ذلك القفص، يرفع رأسه قائلاً:

- خمس سنوات عاشتها تلك الصغيرة بداخل ذلك القفص دون أن تنفذ محاولة واحدة للهروب منه برغم إدراكها أنها يمكنها الخروج في أي وقت. لا أعلم ربما خشيت مما ينتظرها بالخارج، من المجهول. في النهاية أعتقد أن البعض يؤثر الأمن على الحرية.

يذهلني ما يقوله فأتهاوى جالسة إلى الفراش ناظرة حولي قبل أن أسأله بصوت متحشرج:

- ماذا تعني؟ أنني أستطيع الخروج من هنا من دون سوء؟

تتسع ابتسامته المشوه وهو يحرك مقعده متجهًا ناحية إحدى النوافذ بالغرفة، يتوقف ثم يحرك رأسه نحوي قائلاً:

- ما أعنيه هو أنك تستطيعين الخروج من هنا متى شئتِ، ولكن لا توجد أي ضمانات مما قد يحدث لكِ بالخارج.

يتسرب القلق بداخلي فأنهض في فزع قائلة:

- ماذا تعني؟

- انظري بنفسك.

يومـيء برأسـه مشـيرًا نحـو النافـذة. وكمـن يتجـه إلـى منصـة الإعـدام أتجـه ببـطء سـلحفاة عجـوز نحـو النافـذة حتـى أصـل، أزيح السـتائر بيـد مرتعشـة قبـل أن تتشـرب عينـاي كل شـيء بالخـارج وهالنـي مـا أراه.

●●●

الفصل السابع والعشرون

سمكة قرش عملاقة تسبح في هدوء خارج تلك النافذة، تتمايل يميناً ويساراً قبل أن تنتفض فجأة، تغير مسارها ثم تتجه بسرعة أكبر نسبيًا نحو شيء ما وكأنها سهم يعرف هدفه جيدًا. سمكة صغيرة يطبق عليها ذلك القرش بفكيه ليحيلها أشلاءًا في الحال، وفي لحظة ونصف اللحظة يكون قد التهمها بالكامل ومضى مكملاً سباحته بنفس هدوءه السابق، يمر أمامي ولوهلة أشعر أنه ينظر إليّ بعينه السوداء الباردة وكأنه ينظر من خلالي باعثًا في أعماقي رسالة فحواها: لا تشعري أنكِ آمنة بالداخل لوقت طويل، عاجلاً أم آجلاً ستكونين أنتِ وجبتي القادمة. واضعة يدي على الزجاج تسري قشعريرة في جسدي حينما أرى انعكاسي المصغر حبيسًا في عينه السوداء الشبيهة بعين الدمى.

إلى جميع النوافذ الموجودة بالغرفة أهرول كالمجنونة، أزيح ستائرها في ذعر ليستقبلني نفس المشهد ولكن من عدة زوايا مختلفة، المياه، الأسماك، الأعشاب المرجانية وتلك المصابيح المثبتة بالخارج لإعطاء إحساس زائف بضوء الشمس يجعل الأمر يبدو وكأننا في العاشرة صباحًا.

أتراجع إلى الخلف غير مصدقة، أحاول السيطرة على أعصابي التي أوشكت على الانهيار وربما قد انهارت بالفعل، تتسارع دقات قلبي وأكاد أعجز عن التنفس حينما أدرك حقيقة ما أنا فيه، أنا حبيسة غرفة مغمورة بالكامل تحت سطح البحر، أقصد تجثم في قاع البحر.

●●●

بعد عدة ساعات أستفيق من تلك الصدمة أو هكذا أحاول اقناع نفسي، ضوء الشمس الزائف مازال يحتل الغرفة بلا كلل، المسرحية التي تلعب على شاشة التلفاز تعيد نفسها مرة أخرى، يزعجني صوتها فأتجه للتلفاز كي أطفئه، أضغط على زر الإغلاق بقوة فلا يحدث أي شيء، أضرب على سطحه بقبضتي فيتهاوى التلفاز متحولاً إلى ألواح مستطيلة ومربعة الشكل، أجثم أرضًا ممسكة بإحداها فأكتشف أنها مصنوعة من الورق المقوى، مازلت أسمع صوت المسرحية يلعب، يتعالى صوت ضحكات الجمهور وصخبهم، أفتش بيديّ في خبل بين أجزاء التلفاز المبعثرة بحثًا عن مصدر الصوت فلا أجد شيئًا. أحاول النهوض فأتعثر ساقطة قبل أنهض مجددًا متجهة إلى الرفوف الثلاثة بحثًا عن مصدر لذلك الصوت، أحاول الإمساك بالكاسيت فينسحق بين يديّ، غرض آخر مصنوع من الورق

المقـوى، الراديـو ورق مقـوى! شـرائط الكاسـيت والفيديـو ورق مقوى، السـاعة الحائطيـة ورق مقوى، الأرفـف الخشـبية نفسـها مـا هـي إلا ورق مقـوى.. ورق مقـوى، كل شـيء في هـذه الغرفـة عبـارة عـن ورق مقـوى!

أبعثر كل شـيء في جنـون فتتسـاقط الأرفـف ومـا عليها، يسـقط القفـص الذهبـي محتـكًا بيـدي اليسـرى فيخدشـها قبـل أن يحـط علـى أرضيـة الغرفـة بجانبـي، أتلمسـه بأصابعـي مندهشـة، القفـص هـو الشـيء الحقيقـي الوحيـد داخـل تلـك الغرفـة.

أفتـح بـاب الغرفـة متجهـة للخـارج فتسـتقبلني غرفـة أوسـع نسـبيًا ممتلئـة هـي الأخـرى بأغـراض كثيـرة تعـود جميعهـا إلـى فتـرة الثمانينيـات، أعـرف مسـبقًا أنهـا بالطبـع هـي الأخـرى مصنوعـة مـن الـورق المقـوى.

أمـام إحـدى النوافـذ يجلـس هـو علـى مقعـده المتحـرك ناظـرًا إلـى الخـارج في صمـت. وبصـوت يرتعـش أسـأله:

- ما هذا؟ ها؟ دعابة سخيفة! حقًا أنت شخص مريض!

وقبل أن يجيبني أصرخ مكملة:

- أجبني! هل تستمتع بذلك؟

ناظرة إلى الأرض أسير يمينًا ثم يسارًا قبل أن أضيف:

- ثم أنك كاذب! قلت أنه يمكنني الخروج متى شئت، كيف؟ كيف أخرج!

تمر عدة لحظات قبل أن يحرك رأسه إلى اليمين قليلاً ثم يجيبني بصوته البشع:

- هذا الباب على اليمين يؤدي إلى غرفة لمعادلة الضغط يؤدي بابها إلى الخارج.

أتجه إلى الباب الذي أشار إليه، أفتحه في حذر فتقع عيناي على غرفة صغيرة بها باب تتوسطه عجلة فضية تشبه تلك العجلات الموجودة بالغواصات. تتلاحق أنفاسي مجدداً فأغلق الباب ثم أتهاوى جالسة إلى الأرضية ملصقة ظهري بالباب.

ممسكة برأسي أحادثه وكأنني أهمس إلى نفسي:

- نحن في غرفة بقاع البحر، كل شيء بها مزيف، التلفاز، الكاسيت، الساعة، الأرفف، وجميع الأغراض، كل شي، كل شيء مزيف، حتى الشمس مزيفة، المسرحية تلعب من دون توقف. لقد صممت الغرفة كي تكون كابوسًا حي تحبسني فيه إلى الأبد.

ضحكة حديدية بطيئة يطلقها في تلذذ قبل أن ينطق:

- بالضبط، أهلاً بكِ في عالمي.

●●●

الفصل الثامن والعشرون

يأتي الليل، أعرف ذلك فساعتي تخبرني بقدومه، وفي زيف وفي كذب مازالت تلك الشمس الاصطناعية تسطع بالخارج. ذلك النهار الأبدي سوف يقودني إلى الجنون حتمًا، وتلك الستائر الواهنة لا تصنع في الغرفة ظلمة كافية.

أمزق أحد أكمام قميصي ومن الخرق التي أحصل عليها أصنع غمامة أضعها فوق عينيّ وبما تبقى منها أصنع سدادات أذن أثبتها بأذنيّ كي أمنع صوت المسرحية الذي يعيد تكرار نفسه مرة تلو الأخرى من التسرب داخل عقلي. أتمدد إلى الفراش محاولة عزل نفسي عن كل ما يحيط بي ثم أذهب في نوم عميق.

●●●

أستيقظ بعد عدة ساعات، أخلع عني غمامة عينيّ وسدادات الأذن فيحتلني كل ما يحاوطني من جنون مجددًا، الضوء الساطع، صوت المسرحية، الورق المقوى، الزيف والفراغ.

تصدر معدتي قرقرة معلنة استياءها فأتذكر أنني لم أتناول شيئًا منذ ليلة أمس.

في تثاقل أنهض بجسد يملؤه الوهن، أغادر الغرفة لتقع عيناي عليه جالسًا على مقعده في نفس البقعة من الغرفة الأخرى، تمامًا كما تركته بالأمس، ينظر في شرود عبر النافذة.

أستند إلى أحد الجدران وكأنني أحتمي به، أزدرد ريقي ثم أهتف به بصوت مرتعش:

- أنا جائعة، ألا يوجد طعام هنا؟ أم أنه أيضًا مصنوع من الورق المقوى؟! و ماذا اذا أردت قضاء حاجتي؟

تمر بضعة لحظات من الصمت ليقطعها هو في النهاية بصوته الآلي قائلاً:

- وهل تظنيني وحشًا؟ بالطبع يوجد الكثير من الطعام، طعام يكفي لسنوات وسنوات.

يصمت قليلاً ثم يكمل قائلاً دون أن ينظر وراءه:

- الباب الأزرق خلفي يؤدي إلى مطبخ ومخزن للطعام. اخدمي نفسك. الباب الآخر بجانبه يؤدي إلى الحمام، هذا عن قضاء الحاجة وما شابه.

إلى ذلك الباب الأزرق أتجه بخطوات متخبطة، بيدٍ مرتعشة أفتحه ببطء تخوفًا من أية مفاجآت أخرى. الفراغ هو كل ما

أراه بالداخل، يحتل الغرفة بالكامل فيما عدا ذلك الحوض الرخامي الذي يتوسط الغرفة وكأنه ضريح قائم هناك بذاته. اللون الأسود يحتل كل شيء، الأرضية، الجدران والسقف، وفي الجهة المقابلة للباب تم استبدال الجدار بنافذة زجاجية كبيرة تطل على نفس المشهد المخيف بالخارج، المياه.

أدور في أنحاء الغرفة بحثًا عن الطعام المزعوم دون أن أجد لقمة واحدة، أكاد أن أصرخ قبل أن ألحظ فتحة مربعة صغيرة في أحد الأركان بأرضية الغرفة تسع لمرور شخص واحد بالكاد. في حذر أنظر بداخلها فأجد سلمًا حديديًا يؤدي إلى الأسفل. استقله في تردد حتى أبلغ آخر درجاته، يحاوطني الظلام من كل ناحية، أتحسس بيديّ فتصطدما بشيء ما، حبل قصير ينتهي إلى كرة بلاستيكية، أجذبها إلى الأسفل فينتشر ضوء نيوني أبيض في أنحاء المكان تدريجيًا ليكشف عما فيه. أكوام مكدسة من الصناديق المملوءة بعلب العصائر، الطعام، ومختلف المعلبات.

إلى الأمام أسير خطوة فتركل قدمي أحد الصناديق، أجثم محاولة اكتشاف ما به، مئات السكاكين، الملاعق، الشوك، الأطباق البلاستيكية والمناديل الورقية. بجانبه ألحظ عشرات الصناديق المشابهة أيضًا.

إلى الأكوام الأخرى أتجه، ألتقط علبتيّ عصير من هنا، علبتيّ طعام من هناك ثم أعود إلى الصناديق الأولى لألتقط ملعقة، شوكة، سكين، وطبق. أجلس إلى الأرض بين تلك الأكوام المكدسة متربعة في أريحية تامة، ولحسن حظي فتلك العلب سريعة الفتح، لا تحتاج إلى فتاحة طعام. أفتحها جميعها وأبدأ في تناول الطعام في نهم، ناظرة إلى نهاية المخزن، نحو تلك النافذة الكبيرة التي تطل على نفس المشهد المكرر، المياه. مستمعة إلى إحدى جمل المسرحية الشهيرة وهي ترن في أنحاء المكان.

●●●

بعد الانتهاء من الطعام، أقرر التجول بين تلك الأكوام لمعرف ما بها من أشياء، وبعد ربع ساعة من الفحص والتحقق من كل شيء تقريبًا أكتشف وجود أشياءً أخرى غير الطعام والشراب.

ملابس، أغطية، صابون وغسول للشعر، أدوية، مطهرات، كل شيء هنا، وكأنه يخطط للبقاء هنا حتى نهاية العالم أو ما بعده. أقصد يخطط لبقائي أنا. يقشعر بدني لتلك الفكرة قبل أن أقرر مغادر المخزن والصعود إلى الأعلى من جديد. متجهة إلى غرفتي يقاطعني صوته:

- هل أكلتِ؟

ومن دون أن أجيبه أدلف إلى الغرفة، أغلق بابها ثم أسقط إلى الفراش جالسة لأغرق في التفكير من جديد فيما آل إليه مصيري. إلى متى سوف أبقى هنا؟ هل سأتحمل كل ذلك العبث؟ إلى أي مدى سوف تستوعب طاقتي ذلك قبل أن أنهار كليًا! يوم؟ اثنان؟ عشرة؟

هل يبحث عني أبي؟ هل يبحث عني أي شخص؟ كيف سيعثرون عليّ بالأسفل هنا، في أعماق تلك المياه، مستحيل. أعتقد أنني بدأت الانهيار بالفعل، التصدعات تنتشر بين جنباتي.

أنطلق في بكاء حار دون إرادة مني حتى يتملكني التعب ويحتلني النعاس تدريجيًا.

●●●

تمر عدة أيام على نفس المنوال، أستيقظ صباحًا أو مساءً ما عدت أميز بين الاثنين، أستحم، ثم أتجه إلى المخزن بالأسفل، أتناول الطعام وأجلس هناك بالساعات. وقتلاً للملل صرت أصنع أشكالاً وأبني أهرامات وأبراج مستعينة بالصناديق والمعلبات وغيرها من الأشياء. في النهاية استطعت بناء مدينة

مانهاتن مصغرة، وتخيلتني أسير بين شوارعها، أتسكع هنا وهناك، واستحضرت شبح إليوت كي يكون معي. ذهبنا معًا إلى كل مكان، الشوارع والأزقة والساحات، الحدائق والمتنزهات، تمددنا على الأسفلت واعتلينا الأرجوحات.

الآن أفهم ما كتبه أبي إلى أمي حينما أخبرها بأنه أراد أن يصطحبها إلى كل مكان في العالم. فحقًا حين تحب تود أن تقتسم العالم مع من تحب، أن تشاركه إياه.

مستلقية بجانب مبنى الامباير استيت المصغر الذي بنيته أفكر في كل ذلك فأتلمس المبنى متذكرة ما فعلته بإليوت في ذلك اليوم فترتعش يدي متسببة في اهتزاز المبنى ليتهدم بعدها ويتساقط كل شيء حولي، وكأنه يخبرني بحقيقتي الكريهة، كل ما ألمسه يتهاوى، يتحول إلى حطام.

●●●

يوم آخر يمر داخل ذلك الجحيم، أخرج من غرفتي لأشاهده جالسًا كعادته هناك بجوار النافذة، ينظر في شرود إلى الخارج، لا أعلم حتى كيف يأكل أو يشرب، يقضي حاجته، ألا ينام؟

يلتهمني الفضول فأقترب منه عاقدة ساعديّ قبل أن أسأله:

- ألا تأكل؟ تنام؟ ألا تمل؟

شبح إبتسامة يطفو فوق ملامحه المشوهة قبل أن يجيبني:

- أكلت ونمت بما يكفي من قبل فلا حاجة لي لكل ذلك الآن.

في سخرية أرد:

- حقًا؟ أصرت راهبًا بوذيًا؟

و في آلية تامة يجيبني.

- شيء من هذا القبيل.

أضرب الجدار برأسي عدة مرات في وهن قبل أن أغمض عينيّ وأسند رأسي إليه لعدة ثوان ثم يخرج صوتي هادئًا:

- لماذا؟

تمر عدة ثوان قبل أن يرد:

- تذهبين إلى الملاهي، أليس كذلك؟

- نعم.

- لماذا؟

أزيح رأسي عن الجدار ناظرة له:

- من أجل المتعة أعتقد.

- بالضبط، هناك أشياء يا صغيرتي نفعلها من أجل المتعة الخالصة، المتعة فقط ولا شيء غيرها.

- اختطاف فتاة مراهقة وحبسها معك إلى الأبد متعة؟

- حسنًا، أنا لا أحب مدن الملاهي.

- أنت غير معقول!

- أنتِ لا تراعي اختلاف الأذواق، أين ثقافة تقبل الآخرين؟

- هل تصدق نفسك؟

- أنا أؤمن بنفسي.

ضحكات عصبية قصيرة تخرج مني قبل يتحول الأمر إلى هستيريا وتتردد ضحكاتي في أنحاء المكان وألحظه يبتسم بركن شفتيه، أعتقد أنه منتشي لإدراكه أنه وصل لمبتغاه.

لقد جننت.

●●●

في اليوم التالي أستيقظ دون أي رغبة حقيقية في الاستحمام أو تناول الطعام، أجلس في الفراش مخبئة رأسي بين ركبتي محاولة الاختباء من كل شيء حولي، الفوضى التي صارت

بالغرفة، معلبات الطعام الفارغة، الأطباق المتسخة، وغيرها من الأشياء، الضوء الساطع، صوت المسرحية التي صرت أحفظ كل جملة فيها عن ظهر غيب.

تتوالد في رأسي الآن عشرات الأفكار التي تحث على الانتحار والهروب من ذلك الجحيم الذي يحاصرني.

ربما أفضل طريقة للانتحار هنا هي محاولة الهروب من ذلك المكان والخروج إلى الماء، ربما ستتمزق رئتاي تحت ضغط المياه في ذلك العمق وتلتهمني أحد أسماك القرش في النهاية وتخلصني من ذلك العذاب الأبدي.

هزة أرضية تقطع سيل أفكاري يضعف بعدها الضوء لجزء أقل من الثانية ثم يعتدل في الحال، تضطرب رؤيتي بعدها قليلاً وكأنني أشاهد تلفازًا تشوش إرساله، شيء ما ليس على ما يرام.

يشيد القلق مدنًا بداخلي فأنهض كالملسوعة متجهة إلى النافذة، كل شيء يبدو كما هو، نحو الباب أتجه لأفتحه فلا ينفتح، أحاول مرة أخرى دون طائل، يتملكني الذعر فأدق عليه بقبضتيّ، أركله بقدمي، أصرخ بكلمات غير مفهومة قبل أن أستدير وأتهاوى إلى الأرض مستندة إلى الباب. أحاول تهدئة دقات قلبي المتسارعة، أنفاسي المتلاحقة وذلك الجنون الذي

يركض داخلي عقل يتلف ما تبقى به من خلايا سليمة ويثير الفوضى في كل شيء به.

صوت مزلاج الباب ينفتح فأنهض مسرعة كي أفتح الباب، وبالخارج كل شيء يبدو كما هو، جالس هو كعادته على مقعده، ينظر في شرود إلى الخارج دون حراك.

جاثمة على الأرض أهتف به:

- لماذا أغلقت الباب!

تمر عدة ثوان قبل أن يجيبني:

- لم أغلقه.

- بل أغلقته، حاولت فتحه منذ قليل فلم ينفتح.

- صرتِ تتخيلين أشياءً غير حقيقية.

- تريد أن تقودني إلى الجنون، أليس كذلك؟ فقط اعترف إنك أغلقت الباب. أغلقته! لقد حاولت فتحه وفشلت، ثم سمعت صوت المزلاج ينفتح وفتحت الباب و...

يدير رأسه ناحيتي مبتسمًا في هدوء:

- وماذا يا صغيرتي؟

- وجدتك جالسًا كما أنت دائمًا.

يدير رأسه مجددًا نحو النافذة قبل أن يحادثني بصوت هادىء.

- حاولي أن تنالي قسطًا كافيًا من النوم.

زاحفة على ركبتيّ أعود إلى الغرفة في ذهول حتى أصل إلى الفراش فأرتمي إليه وأغط في سبات عميق.

●●●

في اليوم التالي أجلس في غرفتي على الفراش، أتناول الطعام مباشرة من إحدى المعلبات، وأتمتم بصوت منخفض ما يردده أبطال المسرحية، أضحك ضحكات عصبية قصيرة بين الحين والآخر متابعة ما لا يحدث على شاشة التلفاز المزيف الذي رممته وأعدت بناءه من جديد.

أنتهي من تناول طعامي ثم أستلقي إلى الفراش، أمسك بآداة تحكم وهمية، أطفىء بها التلفاز في عقلي، ثم ألقي بها جانبًا في ملل.

بيدي الأخرى التقط هاتفًا وهمي، أفتح به تطبيقًا للدردشة، أحادث أصدقائي، نتبادل الحديث في كافة المواضيع

قبل أن أقرر أن أهاتف إحداهن وأخبرها بما جرى من أحداث في يومي المشغول.

يستنجد هاتفي معلنًا عن قرب نفاد بطاريته فأقوم بشحنه ثم أعود لمشاهدة التلفاز من جديد.

●●●

حلم غريب، أصوات متداخلة، رصاصات تنهمر من كل جانب، صياح وعويل، وأبي يقف في الغرفة أمامي بثياب تلوثها الدماء ممسكًا بمسدس فضي.

استيقظ من غفوتي لأجدني في نفس الحلم، أرفع رأسي عن الوسادة غير مصدقة ما أراه أمامي، أبي، يقف أمامي، بثياب تلوثها الدماء، وجه متورم وعينان تملؤهما الدموع، يجثم على الأرض ليحتضنني في قوة هاتفًا باسمي، أحتضنه بقوة أكبر باكية كما لما أبك من قبل.

- يمسك بوجهي بين يديه في رفق قائلاً:
- ظننت أنني فقدتك.
- كيف وجدتني؟

- الساعة التي أعطيتها لكِ، بها جهاز تتبع، لكنه كان معطلاً حتى ليلة أمس، حينما ومض موقعك لديّ للحظة واحدة هي التي قادتني إليكِ.

متخوفة نظرت نحو الباب، ثم بصوت مرتعش سألته:

- وأين هو؟

- تقصدين شمس؟ لا أعرف لم أجده حينما وصلت، فقط رجاله الذين تبادلت معهم إطلاق النار، أسقطناهم الثلاثة صرعى.

- أنت ومن؟

- أنا والشيخ مهران وبضعة من رجاله.

- كيف نزلتم إلى ذلك العمق بتلك السهولة، لماذا لست مبتلاً؟ وعن أي رجال تتحدث؟

- أي عمق؟ مبتل؟ حلم ماذا تقصدين؟

تتصاعد سرعة دقات قلبي ويضيق صدري قبل أن أنهض متجهة نحو ستائر النافذة أزيحها، قبل أن أخبط عليها بيدي هاتفة في ذعر:

- المياه، تلك المياه، بحر، محيط، لا أعرف.

يدير أبي رأسه إلى الناحية الأخرى قائلاً لنفسه:

- يا إلهي.

أجثم قابضة على كتفيه في قوة وأنا أهتف به:

- ماذا هناك؟ أخبرني!

يدير رأسه ناحيتي بعيون باكية، يقبل جبهتي ثم ينهض ويساعدني على النهوض، نتجه سويًا نحو باب الغرفة ومنها إلى الغرفة الأخرى، باب الخروج المهشم، نسير على حطامه إلى غرفة معادلة الضغط، لتقع عيناي على بابها الموارب، أتراجع إلى الخلف خطوة قبل أن يقبض أبي على يدي في رفق لنسير نحو الباب مجددًا.

يفتح الباب ونخطو بالخارج، تطأ أقدامنا أرضًا رملية فتغوص قدميّ بها، وعلى بعد عدة أمتار أرى بحرًا أزرق تتكسر أمواجه في هدوء، نحن على شاطئ، أحد الشواطىء. من خلف إحدى الغيامات يظهر القمر وقد اكتمل بدرًا، يا إلهي كم لبثت هنا!

أنهار جاثمة على ركبتيّ باكية، مشاعر مختلطة تتصارع بداخلي، فرحة أنا بتحرري أخيرًا من ذلك الحبس الافتراضي الذي تم اختطافي به، ومصعوقة بسبب تلك الكذبة التي خاط ذلك المخبول شباكها حولي.

- الأمر كله كان خدعة!

- نعم، جهز هو كل شيء، قام باستخدام شاشات واقع افتراضي وضعها خلف النوافذ ليبدو الأمر وكأنك..

- في أعماق البحر.

أتفقد بعينيّ تلك الشاشات الكبيرة الموضوعة خلف النوافذ، مولدات الكهرباء، و غيرها من التجهيزات التي استخدمها ليقودني نحو الجنون.

- الوغد!

- تؤ تؤ تؤ تؤ.

يأتي الصوت من خلفنا فاستدير في ذعر وكذلك يفعل أبي مصوبًا مسدسه نحو مصدر ذلك الصوت، شمس، جالسًا على مقعده المتحرك، متجهًا نحونا في بطء، يتوقف بغتة قبل أن يكمل:

- ألم يعلمك والدك ألا تسبي الآخرين في غيابهم؟

- كيف واتتك القدرة أن تخدعني بذلك الشكل! أعماق بحار وأسماك قروش.

- أنا؟ أنا لم أخبرك بذلك، أنتِ من افترضتِ كل ذلك، أنا فقط هيأت لكِ الجو المناسب.

لقد أخبرتك حتى أنك تستطيعين الخروج في أي وقت!

- آه، كي يقتلني رجالك!

- أبدًا، أولئك الرجال لمنع أحدهم من الدخول، وليس من الخروج.

- اصمت! كفاك عبثًا!

يهدر أبي صارخًا ثم يتجه نحوه مصوبًا المسدس إلى صدغه قبل أن يكمل:

- أخبرني لما لا ينبغي لي أن أقتلك الآن، هنا، في تلك البقعة. رصاصة واحدة تهشم جمجمتك، وتنسف مخك، شيء كان من اللازم فعله منذ زمن طويل.

- افعلها، أشك أن لديك الجرأة الكافية.

- لا تختبر صبري.

- أنظر إلى يدك التي ترتعش، هل أجلب لك فراشًا تختبيء تحته؟

انتبه إلى ما يقصده ذلك المخبول وينكمش قلبي خاصة حينما يضربه أبي بالجزء الخلفي من المسدس صارخًا:

- اخرس!

تسيل الدماء من صدغه وركن عينه اليسرى حتى تصل إلى فمه فيتذوقها في تلذذ مبتسمًا قبل أن يكمل:

- كان يجب عليك أن تبقى حتى نهاية الحفلة، ما فعلناه بهم بعد هروبك.. كان مذهلاً.. فاتك الكثير.

- سأقتلك!

يجذب أبي زناد المسدس وأعرف في تلك اللحظة أنه سيقتله بلا تردد هذه المرة، أصرخ به:

- أبي لا! لا تفعل!

ترتعش يده الممسكة بالمسدس قبل أن يدنيه ناظرًا إليّ، يبتسم في ذبول، يفتح فمه ليقول شيئًا فيقاطعه شمس قائلاً بأبشع صوت حديدي يمكن أن يصدر منه:

- حسنًا، لأفعلها أنا.

وقبل أن أستوعب الأمر يرفع شمس يده حاملاً سكين يغرزها بكل ما لديه من قوة في جانب أبي الأيسر فيطلق أبي لا اراديًا رصاصة نحوه تمرق على بعد ملليمترات بجانب رأسه، ثم إلى الخلف قبل أن يسقط على ظهره أرضًا، أهرع إليه

ممسكة بيده، أنزع السكين المنغرز فيه ملقية به بعيداً، أخلع عني قميصي وأحاول منع مزيدٍ من الدماء من التسرب من ذلك الجرح الغائر.

- أبي، أرجوك.

يسعل هو قبل أن ينظر لي قائلاً:

- أنا بخير لا تقلقي.

ضحكة حديدية صدئة تلوث أذنيّ فأنهض غاضبة متجهة نحو ذلك المخبول، أمسك بمقابض المقعد الخلفية وأجره إلى داخل ذلك المنزل جرًا، يحاول هو التحكم في الكرسي مستخدماً الأزرار تحت يديه دون فائدة، يخرج سكينًا آخر ثم يطعنني فوق ركبتي بقليل. صرخة مكتومة تند مني أصوب بعدها لكمة إلى رأسه ثم أعيده إلى الغرفة الكبيرة بالداخل في نفس البقعة التي اعتاد أن يجلس بها ثم أبتعد متراجعة إلى الخلف بظهري وأنا أشاهده يضغط على الأزرار في ذعر حتى ينجح في التحرك للأمام، أغادر الغرفة بسرعة ومنها إلى غرفة الضغط ومنها إلى الخارج حينما يصل هو إلى ما خلفي بقليل. أقف هناك وعلى وجهي ابتسامة تتسع، أتراجع إلى الخلف وأنا أقلد طريقته في الكلام:

- لديك كل ما تحتاجه بالداخل، طعام وشراب يكفي لسنوات وسنوات، اخدم نفسك، لن تستطيع الخروج من هنا متى أردت، في أحلامك فقط، لأن الباب ببساطة سيغلق للأبد.

أغلق باب غرفة الضغط ثم أدير الترس إلى أقصى اليمين حتى ينغلق تمامًا ثم أكمل:

- أهلاً بك في عالمي.. أيها الحقير.

ابتعد متراجعة متجاهلة نداءاته وصراخه وكلماته التي تتساقط خلفي بلا معنى مفهوم:

- افتحي، أرجوكِ، لا أحد يعلم أنني هنا، رجالي كلهم ماتوا، افتحي، افتحي.

أساعد أبي على النهوض ونسير مبتعدين عن ذلك المنزل والشاطىء، نتجه إلى الناحية الخلفية حينما يشير أبي إلى إحدى السيارات التي تقف جانبًا، سيارة حمراء ذات سقف مكشوف، يخرج من جيب بنطاله مفتاحها ثم يناولني إياه. نصل إلى السيارة فأساعده على الجلوس ثم أستقلها، أدير محركها، أنظر خلفي نحو ذلك المنزل ثم أمضي.

●●●

الفصل التاسع والعشرون

«ستكون بخير.. ستكون بخير.."

أتمتم بصوت خفيض محادثة نفسي..

تتطاير خصلات شعره الفضية، وعلى الدماء اللزجة المنسابة على صدغه الأيسر تنعكس أشعة الشمس التي خرجت من مكمنها منذ قليل، بدأت بشرته وشفتاه في الاستحالة إلى اللون الأزرق الباهت بشكل ينبيء أنه على وشك أن يكون جثة هامدة..

أصرخ: «لاااااااا!"

في الأفق تبدأ تضاريس المدينة في الظهور واتخاذ أشكال واضحة، لم يتبق الكثير..

أترجل من السيارة بسرعة متجاهلة ذلك العرج المصابة به قدمي اليمنى، أتجه نحو باب المستشفى الزجاجي الكبير، أفتحه ملوثه إياه بالدماء..

«فلينجدني أحدكم!".

يرتعش جسدي وأنا أنظر إليه عبر النافذة الزجاجية للغرفة في يأس..

أحد الأطباء يمسك بمقبضي جهاز الإنعاش الكهربائي طالبًا من الجميع الابتعاد عنه ثم يشير إلى إحدى الممرضات بتشغيل الجهاز، يلصقه بصدره ثم يصعقه فيهتز جسده للحظات ثم يرتخي تمامًا..

ينظر إلى الشاشة الموصولة بقلبه دون أن يتعرج ذلك الخط الذي يترجم نبضاته، يكرر الطبيب فعلته مرة تلو المرة دون أن يتعرج الخط، فقط اهتزازات جسده البشعة ثم لا شيء..

يهز الطبيب رأسه في أسى مشيرًا إلى الممرضة بإطفاء الجهاز، يضع المقبضين جانبًا، يخلع القناع عن وجهه، ينظر إلى ساعته ثم يتمتم شيئًا ما تدونه الممرضة إياها في دفترها.

ومن دون أن أسمعه أعرف تمامًا ما نطقته شفتاه.

إعلان وفاة الحالة في السابعة والنصف صباحًا.

وفاة والدي، عايش نزار الحداد.

●●●

الفصل الثلاثون
ما بعد كل شيء

أنهض صارخة، أقتحم الغرفة وأدفع كل من بها إلى الخارج، فوضى عارمة أتسبب بها قبل أن أرتمي إلى الفراش ممسكة بيديه، «انهض!» أصرخ باكية، أكررها وأنا أدق على صدره بقبضتيّ، أمسك برأسه بين يديّ ثم ألامس جبهته بجبهتي، «أرجوك انهض، لا تتركني»، أقبل يديه وأبكي، أبكي كما لم أبك من قبل.

وكما يحدث في أفلام الأبطال الخارقين، من خلف الباب ألمح أقدامًا أنثوية تخطو متجهة نحونا، تتسلق عيناي جسدها حينما تبدأ في الظهور، امرأة تشبهني إلى حد كبير، أو أشبهها.

نظرة واحدة تسددها إليّ تحمل الكثير من الأسف تتجه بعدها إلى أبي، تأخذ يديه من بين يديّ في رفق، تدني رأسها منه وتهمس شيئًا ما في أذنه:

- عايش، لقد عدت، أنا هنا، لن أتركك أبدًا، انهض، ليس من أجلي، من أجل حلم، عايش، لن أغادر هذه الغرفة حتى تنهض.

تسيل الدموع من عينيها وهي تقبض على يديه بقوة قبل أن تطبع قبلة طويل على شفتيه ثم تكمل مبتسمة:

- أيك انيبيموس أبيت يمي.

تمر عدة لحظات قبل أن يقتل صمت الغرفة صوت جهاز ضربات القلب الموصول به مطلقًا صفارة طويلة تتبعها عدة صفارات قصيرة تشير إلى عودة أبي إلى الحياة مرة أخرى.

يفتح عينيه في بطء ناظرًا إليها في ذهول:

- حياة..

تحتضنه في قوة باكية قائلة:

- نعم، حياة، أنا آسفة، سوف أشرح لك كل شيء.

يدير رأسه ببطء ناحيتي:

- حلم.

أدفن رأسي بصدره متشبثة بملابسه وأنا أبكي قائلة:

- أرجوك لا تفعل ذلك مرة أخرى.

يد رقيقة تتلمسني، يدها، أرفع رأسي فتحتضنني دون أن تقول كلمة واحدة، ونبقى على ذلك الحال لمدة طويلة.

●●●

الخاتمة

غادر أبي المستشفى بعد عدة أيام، عدنا بعدها إلى منزل أمي.

بخصوص أمي، اعترفت لأبي بكل شيء، الحقيقة إنها لم تتركه لأجل شخص آخر، أو لأنها ملت، الأمر إنها اكتشفت عودة السرطان إلى جسدها من جديد، أصابها الذعر، وبعد كثير من التفكير في الأمر قررت الابتعاد وخوض تلك التجربة بمفردها هذه المرة، فضلت أن تحتضر وحيدة، لم ترغب أن تجعله يعاني الأمرين معها مجددًا، لم تقدر على ذلك.

وبعد فترة من العلاج تغلبت على المرض وعادت للبحث عنا ولكن كنا قد رحلنا من هنا دون أن نترك أية خيوط تقود إلينا. وها هي وجدتنا مجددًا بعد أن عدنا إلى مصر.

تدهورت حالة إليوت كثيرًا، هكذا اخبرتني كورتني حينما راسلتها، تأسفت كثيرًا لأنها اضطرت إلى إخباره بكل شيء حتى يهدأ قليلاً.

عرف هو كل شيء ولم ينتظر الكثير، قرر المجيء إلى مصر، أنا الآن في انتظاره بالمطار، رحلته أوشكت على الوصول.

مـن إحـدى البوابـات ألمحـه يعبـر ويلمحنـي، يفلـت أمتعتـه ويركـض نحـوي وأركـض نحـوه بالمقابـل، يحتضننـي، يحملنـي بـين ذراعيـه ويـدور بـي عـدة مـرات قبـل أن يهمـس:

- حلم.
- تعرف الآن اسمي الحقيقي.
- أجمل بكثير من اسمك المزيف.

أبتعد عنه قليلاً قبل أن أقول في قلق:

- ولكـن إليـوت، ليـس الاسـم فقـط هـو المشـكلة، أنـت تعلـم، الديانـة، المسـافة، ال...
- شششششش، أعلـم، سـوف نكتشـف حـلاً لـكل شـيء، لا تقلقـي .

يقبـل جبهتـي ثـم يحتضننـي مجـددًا وكأنـه يخشـى أن أتبخـر مـن بـين يديـه.

●●●

بعـد الانتهـاء مـن إجـراءات الوصـول، نسـير سـويًا نحـو بـاب الخـروج، وعلـى إحـدى الشاشـات المثبتـة للترفيـه عـن المسـافرين تعـرض مسـرحية ثمانينيـة أصبحـت أحفظهـا كاملـة عـن ظهـر قلـب،

الصفير يطن في أذني، تتشوش رؤيتي قليلاً، تتسارع أنفاسي وأشعر أن الأرض تدور بي، يمسك بي إليوت في قلق قائلاً:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم نعم، لا تقلق.

نغادر سويًا إلى الساحة الخارجية للمطار، وبجانب حديقة كبير نمر ثم نتجه إلى البوابة الخارجية حيث ركنت السيارة.

نضع الأمتعة بالسيارة ثم نستقلها.

في مذياع السيارة تلعب أغنية

I'll Keep Coming – Low Roar

يلحظ إليوت شيئًا ما بيدي فيسألني في فضول:

- ما الذي تقبضين عليه بيدك؟

أرخي قبضة يدي التي تعتصر زهرة حمراء صغيرة تفتت معظم أوراقها، أقربها من أنفي أشتمها في تلذذ مغمضة عينيّ ثم أهمس قائلة:

- رائحتها جميلة.

تتسع إبتسامتي حتى تحتل وجهي بالكامل وأنا أنظر إليه قائلة:

- هل أقطف لك واحدة؟

تمت بحمد الله

في السادسة صباحًا واثنين وعشرين دقيقة، الثالث من يناير ٢٠١٨

صفحة الكاتب على الفيسبوك

https//:www.facebook.com/OmerKamalElDeenOfficial/

صفحة الكاتب على تويتر

https//:twitter.com/miroozy

صفحة الكاتب على انستجرام

https://www.instagram.com/miroozy/

صفحة الكاتب على جودريدز

https://www.goodreads.com/author/show/8127206._

الأعمال السابقة :

١- سكارلت (مجموعة قصصية) الطبعة الثانية.

٢- أروع واحدٍ وعشرين شيئاً في إيميليا (رواية) الطبعة الثانية.

٣- أرض الفانيليا

٤- سماء البنفسج

٥- خريف مانهاتن

الفهرس	الصفحة

إهداء:..... ٥

الفصل الأول:..... ١١

الفصل الثاني:..... ١٧

الفصل الثالث :..... ٢٥

الفصل الرابع:..... ٣٥

الفصل الخامس:..... ٤١

الفصل السادس:..... ٥١

الفصل السابع:..... ٥٥

الفصل الثامن مظروف أحمر:..... ٦١

الفصل التاسع شموس صغيرة:..... ٦٧

الفصل العاشر:..... ٧٣

الفصل الحادي عشر:..... ٨٥

الفصل الثاني عشر:..... ٩٣

الفصل الثالث عشر :..... ١٠٩

الفصل الرابع عشر:..... ١١٩
الفصل الخامس عشر:..... ١٢٥
الفصل السادس عشر:..... ١٣٧
الفصل السابع عشر:..... ١٤٣
الفصل الثامن عشر:..... ١٥١
الفصل التاسع عشر:..... ١٦٣
الفصل العشرون:..... ١٦٩
الفصل الحادي والعشرون:..... ١٧٥
الفصل الثاني والعشرون:..... ١٨٥
الفصل الثالث والعشرون:..... ١٩٣
الفصل الرابع والعشرون:..... ١٩٧
الفصل الخامس والعشرون:..... ٢٠٥
الفصل السادس والعشرون:..... ٢٠٩
الفصل السابع والعشرون:..... ٢١٥
الفصل الثامن والعشرون:..... ٢١٩

الفصل التاسع والعشرون:..... ٢٣٩
الفصل الثلاثون ما بعد كل شيء:..... ٢٤١
الخاتمة:..... ٢٤٣

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر